

## الفصل الثالث

### التجديد في المديح والهجاء

١

#### مديح الأخطل والفرزدق وجريير

إنما اخترنا هؤلاء الشعراء الثلاثة لتصوير ما أصاب المديح عندهم من تطور وتجديد ، وسنختارهم فيما بعد لتصوير ما أصاب الهجاء هو الآخر من تطور وتجديد ، لأن نقاد العصر العباسي وأدباءه اتفقوا على أنهم أشعر أهل العصر الأموي ، فهم الطبقة الأولى من الشعراء الأمويين ، وهم فحول الشعر العربي حينئذ وأقطابه الكبرى<sup>(١)</sup> . وما يزال النقاد والأدباء المُحَنِّدُونَ يعتنقون هذا الرأي ويؤمنون به ، ولذلك رأينا أن نفسر ما أصاب الفرعين الكبيرين في شجرة الشعر العربي ، فرعى المديح والهجاء ، من تحوير وتغيير في شعرهم خاصة ، لأنهم خيبرٌ من يمثل العصر ، ولأنهم دفعوا فنَّ الشعر حقاً إلى التعبير عن طاقات جديدة ، وقد ذهب شعرهم — أو كاد — في تدبيح قصيدتي المديح والهجاء .

أما الأخطل فن تَغَلِب ، وهي قبيلة كبيرة ، كانت تنزل في الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها جنوباً حتى الحيرة ، وغرباً حتى حدود الشام ، وشمالاً وشرقاً حتى أذربيجان<sup>(٢)</sup> . وقد تسربت إليها المسيحية في العصر الجاهلي . وظلت على مسيحياتها في العصر الأموي إلا طائفة قليلة دخلت في الإسلام . ونراها في الفترة الأولى من الفتوح الإسلامية تقف في صفوف الفرس والروم فيتصدى لها

Le Chantre des Omiades (Paris.) p. 3.

وانظر أيضاً الأغاني (طبع الساسي) ٩٣/١٠ ،

٥٨/١١ ، ١٤٧/١٣ ، ١٢٢/٢٠ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٤/٨ - ٥ ،

٢٨٢/٨ و ٩٠/١٠ .

(٢) انظر في منازل تغلب Lammens ،

خالد بن الوليد ، وَيُنْكَلُّ بِهَا وَيُمَزَّقُهَا شَرًّا مُمَزَّقٌ (١) ، فَتُضْطَرُّ إِلَى الاعتراف بسلطان الخلافة الإسلامية ، ويذهب وقد منها إلى عمر بن الخطاب ، فيعاملهم معاملة حسنة ، ويقبل ألا يدفعوا جزية الأجانب من غير العرب ، إنما يدفعون صدقة المسلمين من العرب على أن لا يتنصروا أعداء الإسلام (٢) .

وتنقدم فنجد تغلب في صفين ، وقد شهرت سيوفها مع معاوية وقبائل الشام اليمانية في وجه علي وأصحابه . وظلت بعد ذلك موالية لبني أمية ، فنحن نجدها في صفوف يزيد بن معاوية في موقعة الحرة التي اصطلت نارها الخارجون عليه من أهل المدينة ، كما نجدها في صفوف مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط التي اندحرت فيها القبائل القيسية .

وفي هذه القبيلة نبت الأخطل ، واسمه غياث بن غوث ، وهو من بني جشم بن بكر أحد فروع القبيلة المهمة . ولنا نعرف متى ولِدَ بالضبط ، ويظهر أنه ولد حول سنة ٢٠ للهجرة ، وكانت ولادته في الحيرة كما يذكر صاحب الأغاني (٣) والنصوص المتصلة بنشأة الأخطل قليلة ، وهناك رواية تذهب إلى أن زوج أبيه كانت تضييق عليه ، فكانا يتشاجران (٤) ، ويقال إنها هي التي لقبته دؤبلاً ، والدؤبل الحمار الصغير . أما الأخطل وهو اللقب الذي عُرف به ، ومعناه السفية ، فيقال إن الذي لقبه به كعب بن جعيل أحد شعراء عشيرته ، لِمَا رَأَى فِيهِ مِنْ شَرِّ ، إذ كان كثير الوقوع في أعراض الناس (٥) .

ويتضح هذا الحلق فيما يُروى عن اتصاله بيزيد بن معاوية وهجائه الأنصار لإرضاء له ، فقد كان الأنصار مغاضبين لبني أمية منذ الحوادث التي قُتل فيها عثمان ، إذ قُتل بين ظهرانيهم ولم يدافعوا عنه ، ثم بايعوا علياً وذهبوا معه إلى صفين لحرب معاوية وأنصاره (٦) ، ولما دار الزمنُ دورته وأصبح معاوية هو الخليفة كان يعدُّهم قتلَةَ عثمان وأعداءه (٧) .

في الهامش .  
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٠١/٨ .  
(٥) أغاني ٢٨٠/٨ .  
(٦) مروج الذهب للمسعودي ٣١٠/٤  
والمقبوض ٢٠٦/٢ وما بعدها .  
(٧) الطبري ٩٢/٢ .

(١) طبري ٢٠٦٢/١ وما بعدها ، ٢٠٧٢/١  
وفتح البلدان للبلاذري ص ١١٠ .  
(٢) طبري ٢٤٨٢/١ ، والبلاذري ص ٧٥ ،  
والكامل لابن الأثير (طبع أوربا) ٤١٠/٢ .  
(٣) أغاني (طبع الساسي) ١٦٢/٧ وانظر  
الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٢/٨ والتعليق

وعلى هذا النحو لم يكن الأنصار من هَوَى معاوية وبيت بني أمية ، وقد  
 اغتمدوا سيوفهم بعد موقعة صفين ، ولكنهم لم يُغصِدُوا ألسنتهم ، فإن شعراءهم  
 أخذوا يهجون شعراء بني أمية ، وطار الشرُّ في المدينة بين عبد الرحمن بن حسان  
 ابن ثابت وعبد الرحمن بن الحكمم أنخى مَرَوَانُ بن الحكمم فتهاجيا هجاءً مرّاً<sup>(١)</sup> .  
 وكان ابنُ حَسَّانٍ يتعرض لنساء بني أمية ، فيتغزَّلُ بهن لغرض الإزراء عليهن .  
 ومن تغزَّلَ بها منهن رَمَلَانَةُ بنت معاوية ، فغضب أخوها يزيد ، ودعا الشعراء  
 إلى هجاء ابن حسان وأهله من الأنصار فكلهم أبى أن يهجو من آووا رسول الله  
 ونصروه . وكان ممن دعاهم إلى ذلك كعب بن جَعْفَلِ التَّغَلْبِي ، وكان مسلماً ،  
 فقال له : « أَرَادَى أَنْتَ إلى الإِشْرَاقِ بعد الإيمان ، لا أهجو قومًا نصروا رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني أدُلُّكَ على غلامٍ مِنَّا نصْراني ، كأن لسانه  
 لسانُ ثَوْرٍ ، يَتَعَنَّى الأَخْطَلُ » فدعاه يزيد ، وليَّاه الأَخْطَلُ<sup>(٢)</sup> ، فنظم في هجاء  
 الأنصار وشاعره عبد الرحمن بن حسان قصيدة دوت في العالم الإسلامي ،  
 يقول فيها :

ذَهَبَتْ قَرِيشٌ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَمَاءِ وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عَمَائِمِ الْأَنْصَارِ  
 فَتَدَرُّوا الْمَعَالِيَ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا وَخَذُوا مَسَاحِيحِكُمْ بِنِي النَّجَّارِ

ومن حينئذ أصبح الأخطل شاعر بني أمية يعيش في بلاطهم وفي ظلالهم .  
 وقد اتخذه يزيد نديماً له ، فكان يرافقه ويلازمه حتى في الحج إلى البيت الحرام<sup>(٣)</sup> .  
 وفي ديوانه قصائد مختلفة في مديحه ومدح أخيه عبد الله وابنه خالد ، واستمع إليه  
 يقول في يزيد<sup>(٤)</sup> :

أَمَّا يَزِيدُ فَإِنِّي لَسْتُ نَاسِيَهُ جَزَاكَ رَبُّكَ عَن مُسْتَقْرَدٍ وَحَدِّ  
 حَتَّى يُغَيِّبَنِي فِي الرَّمْسِ مَلَكُودُ جَزَاءَ يَوْسُفَ إِحْسَانًا وَمَغْفِرَةً  
 نَفَاهُ عَن أَهْلِهِ جُرْمٌ وَتَشْرِيدُ أَوْ مِثْلَ مَا جَزَى هُرُونَ وَدَاوُدُ

ص ٣١٤ .  
 (٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٠١/٨ .  
 (٤) الديوان ص ١٤٧ .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٤٧/١٣ وما بعدها .  
 (٢) أغاني ١٤٧/١٣ وما بعدها ، ١١٨/١٤ .  
 وما بعدها ، والديوان (طبعة سنة ١٨٩١ م)

أو مثل ما نال نوح في سفينته إذ استجاب لنوح وهو منجود<sup>(١)</sup> أعطاه من لذة الدنيا وأسكنه في جنة نعمة فيها وتخلد

وواضح في أسماء الرسل الذين ذكرهم الأخطل أنه كان مثقفاً ثقافة دينية ، وهذا طبيعي لأنه مسيحي ، وقد كان على مذهب اليعاقبة ، وفي ديوانه وأخباره ما يدل على أنه كان ابناً باراً للكنيسة<sup>(٢)</sup> .

وليس هذا ما يلفتنا وحده في مدائح الأخطل في أثناء خلافة معاوية وابنه يزيد ، فنحن نلاحظ أيضاً أنه كان يضمن مدائحه انتصار معاوية في صفين ، كما يضمنها الفكرة التي كان يروج لها معاوية والأمويون من حوله ، وهي فكرة أن الله اصطفاهم للأمة ، واستمع إليه يقول<sup>(٣)</sup> :

تَمَّتْ جُدُودُهُمْ وَاللَّهُ فَضَّلَهُمْ  
وَجَدَّ قَوْمٍ سِوَاهُمْ خَامِلٌ نَكَدٌ  
وَيَوْمَ صَفِّينَ وَالْأَبْصَارُ خَاشِعَةٌ  
أَمَدَّهُمْ - إِذْ دَعَا مَنْ رَبَّهُمْ مَدَدٌ  
وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ لَا يُوَازِنُهُمْ  
بَيْتٌ إِذْ أَعْدَتِ الْأَحْسَابُ وَالْعَدَدُ

واستمر يوقع على قيثارته هذه النغمات التي كان يستحبها البيت الأموي ، وهو توقيع ثبتته في نفسه وأكدته أن قومه كان هواهم مع بني أمية ، فأنجر معهم ، وانساق في تيارهم .

ولما تطورت الظروف بعد وفاة يزيد ، ودعا ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، انضمت تغلب إلى صفوف مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك ، حتى إذا اجتمعت الأمة على الأخير برزغ نجم الأخطل في بلاطه على الرغم من نصرانيته فكان يسجيء وعليه جبة خزر وحرز خزر ، في عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمرًا ، حتى يلخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن<sup>(٤)</sup> .

(١) منجود : مغموم .  
(٢) انظر الفصل الخاص بدين الأخطل في كتاب لامنس الآنف الذكر ص ١٤ وما بعدها وانظر ترجمة الأخطل الملحقه بديوانه ص ٣٣٦ وما بعدها . وانظر الأغاني (طبع دار الكتب)  
(٣) ديوانه إشارات إلى صلبانهم (الديوان ص ٣٠٩) وأقسام بأيمان مسيحية (الديوان ص ٧١، ٧٨) .  
(٤) الديوان ص ١٧٢ وقد دعا يزيد بابن الإمام . انظر الديوان ص ٢٣٦ .  
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٩/٨ .

(١) منجود : مغموم .  
(٢) انظر الفصل الخاص بدين الأخطل في كتاب لامنس الآنف الذكر ص ١٤ وما بعدها وانظر ترجمة الأخطل الملحقه بديوانه ص ٣٣٦ وما بعدها . وانظر الأغاني (طبع دار الكتب)  
(٣) ديوانه إشارات إلى صلبانهم (الديوان ص ٣٠٩) وأقسام بأيمان مسيحية (الديوان ص ٧١، ٧٨) .  
(٤) الديوان ص ١٧٢ وقد دعا يزيد بابن الإمام . انظر الديوان ص ٢٣٦ .  
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٩/٨ .

ولكى نفهم موقف عبد الملك من الأخطل وتقريبه له حتى ليتخذها شاعره الرسمي لا بد أن نلاحظ العنصر السياسي في المسألة ، فالأخطل لم يحفظ بكل هذا التقدير لتجويده الفنى في شعره ومديحه فحسب ، بل لعله إنما حظى به لما كان لقومه على عبد الملك وخلافته من أباد بيضاء . وكان عبد الملك يرمز برضاه على الأخطل إلى رضاه على تغلب المسيحية وعلى مسيحي الشام عامة (١) .

ومعنى ذلك أن الأخطل كان له مركز سياسى فى قصر عبد الملك بجانب مركزه الأدبى فى الشعر والمديح ، وإذا قلنا إنه كان سفير تغلب عند عبد الملك لم نبتعد وعلى ضوء هذه السفارة نستطيع أن نفهم كثيراً من الحوادث التى تتصل به من جهة ، وبعبد الملك من جهة ثانية ، فقد كان يكرمه ويُنزله منزلة رفيعة ، حتى بلغ الأمر بالرواة أن زعموا أنه كان يشقُّ إليه الصفوف ، والصليب مُدلى من عنقه ، ولحيته تقطر خمرًا . وهناك حادثان رواهما أبو الفرج الأصفهاني تذلان فى وضوح على مكانته فى البلاط الأموى وأنه كان حقاً سفيراً لقومه فيه . والحادثان جميعاً تتصلان بالحروب التى اندلعت نيرانها بعد موقعة مَرَجٍ راهط بين القيسيين بقيادة الجَحَاف بن حكيم وزُفَر بن الحارث وبين تغلب قوم الأخطل . أما الأولى فتتصل بالجحاف إذ نزل مع بعض وجوه قيس على عبد الملك بعد قضائه على ابن الزبير ، وكان القتل استمرَّ فى تغلب والقبائل القيسية ، وأراد عبد الملك أن يصلح بين الفئتين ، وإذا بالأخطل يدخل ، فينشد :

ألا سائل الجَحَاف هل هو نائرٌ بقَتَلَى أُصَيَّبَت من سَلَيْمٍ وعامرٍ

فى قصيدة طويلة . وكأنه يريد أن يستغلَّ عبد الملك ليثور ضد قيس ، ويثأر منها لحروبها ضد تغلب حليفته . فوثب الجَحَاف مُغْضَبًا ، وحشد جموع قيس ، وأغار بها على تغلب وهى آمنة ، فأوقع بها وقعة البِشْرِ المعروفة التى قتل فيها نساءها ، وبقرَ بطون حواملها (٢) ، وفيها يقول الأخطل (٣) :

لقد أوقعَ الجَحَافَ بالبِشْرِ وَقَعَةً إلى اللهِ منها المُشْتَكَى والمُعْوَلُ

(١) مطول) لفيليب حتى ٣١٤/٢ .

(٢) أغاني (طبع الساسى) ٥٥/١١ .

(٣) الديوان ص ١٠ .

(١) من المسيحيين الذين كانوا مقربين إلى عبد الملك يوحنا الدمشقى وكان يقبض بيديه على زمام الشؤون المالية . انظر تاريخ العرب

وهذه هي الحادثة الأولى التي تتصل بسفارة الأخطل لقومه لدى عبد الملك ، أما الحادثة الثانية فحادثة زُفَر بن الحارث زعيم قَيْس في الجزيرة ، فإن عبد الملك جذبته إليه ، وأجلسه معه على سريره تكريماً له ، فغضبت تغلب ، وثارَت نائرة سفيرها ، فدخل على عبد الملك متغيظاً مُحَنَقاً ، وقال له : أتُجَلِّس هذا معك على السرير وهو القائل بالأمس :

وقد يَسْبِتُ المَرَعَى على دِمَنِ الشَّرَى وتَبَقَى حَرَازَاتُ النُّفوسِ كما هَيبَا  
فقبض عبد الملك رجله ، ودفَع بها في صدرِ زُفَر ، فانقلب عن السرير ، ووقف يناشد عبد الملك العهد الذي أعطاه (١) .

والأخطل إذا كان فشل في سفارته الأولى ، فقد نجح في سفارته الثانية ، وقد عبَّرت قصائده في عبد الملك عن هذه السفارة في أتمِّ معانيها وأجلاها ، إذ لم يَعدْ شاعراً يمدح البيت الأموي كما كان الشأن في عصر معاوية ويزيد ، بل أصبح سفيراً لقومه بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معان .

ومن هنا كانت قصيدة الأخطل في عصر عبد الملك ، ونقص قصيدة المديح ، شَرَكَةً بين عبد الملك وبين قوم الأخطل من تغلب ، فهو يمدحه ويتعرض لانتصاراته وهو يمدح قومه أو بعبارة أخرى يفخر بهم ، ويتعرض لما قدموه لعبد الملك . ونراه يخلص من ذلك إلى حروبهم مع قَيْس ، فيهجوها هجاءً مُرّاً . وبذلك تنوعت قصيدة المديح عند الأخطل في عصر سفارته لعبد الملك ، ففيها مديح وفخر وهجاء ، وعادة يقدم لذلك بالغزل ووصف رحلته بالصحراء ، وقد يتعرض للخمر ، فيصفها ويصف تأثيرها ومجالسها .

وخير قصيدة توضح ذلك قصيدة (خَفَّ القَطِين) فقد طارت شهرتها وطبقت الآفاق في عصر الأخطل وبعد عصر الأخطل . ونراه يبدؤها بوصف رحلة صاحبتها في الصحراء على نحو ما صنع زهير في معلقته ، ويحاول التميز منه والتجديده ، فيسترد إلى وصف الخمر ، واستمع إليه يقول (٢) :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا منك أوبكروا وأزعجتهم نوى (٣) في صرْفِهَا غَيْرُ

دار الكتب) ٦٤/١١ .

(٣) نوى هنا : نية .

(١) أغاني ( طبع دار الكتب) ٢٩٦/٨ .

(٢) الديوان ص ٩٨ وانظر الأغاني ( طبع

كَأَنِّي شَارِبٌ يَوْمَ اسْتَبِيدَ بِهِمْ      مِنْ قَرَقَفٍ ضَمِنَتْهَا حِمْنُصٌ أُوجِدَرُ<sup>(١)</sup>  
جَادَتْ بِهَا مِنْ ذَوَاتِ الْقَارِ مُتْرَعَةً      كَلْفَاءَ يُسْنَحَتْ عَنْ خُرْطُومِهَا الْمَدَرُ<sup>(٢)</sup>

فهو يستطرد على هذا النحو إلى وصف الخمر ، حتى إذا أرضى حاسته الفنية من ذلك رجع إلى وصف رحلة صاحبه مع أهلها .

والخمر في مدائح الأخطل لون يتميز به من جريير والفرزدق ، فقد كان الإسلام يمنعهما أن يخوضا في هذا الموضوع ، أما الأخطل فإن مسيحيته لم تقف حائلا بينه وبين ذلك ، وقد عُرِفَ بحبه للخمر ومعاقته لها ، ويفيض كتاب الأغاني بروايات وأخبار تصوّر هذه الناحية عنده<sup>(٣)</sup> ، ومن يرجع إلى ديوانه يجد الخمر تحتل جانبا واضحا فيه ، ومن طريف قوله فيها<sup>(٤)</sup> :

وَكَأْسٍ مِثْلَ عَيْنِ الدِّيكِ صَرَفٌ      تَنْسَى الشَّارِبِينَ لَهَا الْعُقُولَا  
إِذَا شَرِبَ الْفَتَى مِنْهَا ثَلَاثًا      بغيرِ الْمَاءِ حَاوَلَ أَنْ يَطْوِلَا

ويقول في وصف الشرب وهم يتناولون الخمر<sup>(٥)</sup> :

رَاحُوا وَهُمْ يَحْسِبُونَ الْأَرْضَ فِي فُلْكَ      إِنْ صَرُّعُوا وَقَتِ الرَّاحَاتِ وَالرُّكْبُ

والذي يتعقب الأخطل في هذا الموضوع لا يشك في أنه كان يحاول الإطراف في الفكرة والصورة ، حتى تروقا سامعيه .

على كل حال تمتاز قصيدة ( خف القطين ) بأننا نجد في أولها خمرا ، وكأن الأخطل يريد بذلك أن يُجَدِّدَ وأن يَبْنِدَ معاصريه من المسلمين أمثال الفرزدق وجريير الذين لا يستطيعون أن يعرضوا لها في مدائح الخلفاء . وبجانب هذه الخمر نجد وصف رحلة صاحبه وأهلها في الصحراء ، وهو يفصل ذلك ، وما يزال في هذا التفصيل حتى ينتقل إلى مديح عبد الملك فيقول :

(٣) أغاني ( طبع دار الكتب ) ٢٨٩/٨ ،  
٢٩٤/٨ ، ٢٩٩/٨ ، ٣١٧/٨ ، ٣٢٣/٩ .  
(٤) الديوان ص ٣٧١ وأغاني ٢٩٦/٨ .  
(٥) أغاني ( طبع دار الكتب ) ٨٨/٦ .

(١) القرقف : الخمر ، وجدر : بلد بالشام .  
(٢) ذات القار : خابية الخمر المطلية بالقار ، والكلفاء : التي في لونها كلف وهو السواد في صفرة ، والمدر : الطين ، وينحت عن خرطومها : يفض عن فها .

أظفَرَهُ اللهُ فَلْيَهْنِيءَ لَهُ الظَّفَرُ  
 خليفة الله يُسْتَسْقَى بِهِ المَطَرُ  
 فِي حَافِيهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ العُشْرُ (١)  
 فَوْقِ الحَاجِيءِ مِنْ آذِيَةِ غَدْرُ (٢)  
 مِنْهَا أَكْفَيْفٌ فِيهَا دُونَهُ زُورُ (٣)  
 وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يُجْتَهَرُ  
 لَوْعَةً كَانَتْ فِيهَا لَهُ جِزْرُ (٤)  
 مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جِنٌّ وَلَا بَشَرُ  
 مُسَوِّمٌ فَوْقَهُ الرِّيَابُ وَالقَتَرُ (٥)  
 وَبِالشُّوْبَةِ لَمْ يُنْبَضْ بِهَا وَتَرُ (٦)  
 وَيَسْتَقِيمُ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعَرُ  
 كَانَتْ لَهُ نِقْمَةٌ فِيهِمْ وَمُدَّخَرُ  
 مَا إِنْ بُوَازَى بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ (٧)  
 أَهْلُ الرِّيَاءِ وَأَهْلُ الفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا (٨)  
 إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا  
 كَانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصِرُ (٩)  
 لِأَجْدِّ إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدَ مُحْتَقِرُ  
 وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا (١٠)

إلى إمام تُغَادِينَا فَوَاضِلُهُ  
 الخَائِضُ العِمْرَ والمِيمُونَ طَائِرُهُ  
 وَمَا الفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ  
 وَزَعَزَعَتْهُ رِيَاحُ الصَّيْفِ وَاضْطَرَبَتْ  
 مُسْحَنَفِرٌ مِنْ جِبَالِ الرُّومِ يَسْتُرُهُ  
 يَوْمًا بِأَجُودٍ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ  
 مُفْتَرِشٌ كَافِرِاشِ اللَّيْثِ كَلَّكَلَهُ  
 مُقَدِّمًا مَائِي أَلْفَ لَمَنْزِلَةٍ  
 يَغْشَى القَنَاظِرَ يَبْنِيهَا وَيَهْدِيهَا  
 حَتَّى يَكُونَ لَهُمُ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ  
 وَتَسْتَبِينَ لِأَقْوَامٍ ضَلَّالَتُهُمْ  
 ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِأَنْقَالِ العِرَاقِ وَقَدِ  
 فِي نَبْعَةٍ مِنْ قَرِيشٍ يَعْصِبُونَ بِهَا  
 تَعَلَّوْهُ الهِضَابَ وَحَدَّثُوا فِي أَرْوَمَتِهَا  
 حُشْدٌ عَلَى الحَقِّ عِيَّافُ الخَيْنَا أَنْفُ  
 وَإِنْ تَدَجَّتْ عَلَى الآفَاقِ مُظْلِمَةٌ  
 أَعْطَاهُمْ اللهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ  
 شُمْسُ العَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقْمَادَ لَهُمْ

وواضح أن الأخطل يستهل مديحه عبد الملك بخلافته على المسلمين ، وإمامته  
 لهم ، وهو في ذلك لا يفترق في شيء عن شعراء المسلمين حين يمدحون الخليفة .

(٦) الطف: موضع بالقرب من الكوفة كذلك  
 الشوية. لم ينض بها وتر: لم يرم بها نبل .  
 (٧) النبع: أجود الشجر ، يعصبون بها :  
 يلتزمونها .  
 (٨) الرباء: الفضل والمنة .  
 (٩) تدجت: أظلمت ، معتصر: ملجأ .  
 (١٠) شمس: جمع شمس وهو الرجل  
 المر في عداوته .

(١) الغراب: الأمواج ، والعشر: شجر .  
 (٢) زعزعت: حركته ، الحاجية: جمع  
 جؤجؤ وهو الصدر . والآنى: الموج ، وغدر:  
 جمع غدير .  
 (٣) مسحفر: سريع . أكافيف الجبل :  
 حروفه الناتئة في أعراضه ، زور: ميل .  
 (٤) الكلكل: الصدر . الجزر: قطع  
 اللحم تأكلها السباع .  
 (٥) مسوم: معلم . القتر: الفبار .

وقد انتقل يمدح تخلُّقه ، فاستعار صورة قديمة نجدها عند النابغة في مديحه للنعمان إذ يقول في داليته<sup>(١)</sup> :

وما الفُراتُ إذا هبَّ الرياحُ لهُ  
تَمَرِي أَوَاذِيَهُ الْعَبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ<sup>(٢)</sup>  
يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتَرَعٍ لَجِبِ  
فِيهِرُكُمْ مِمَّنِ الْيَسْبُوتِ وَالْخَضَدِ<sup>(٣)</sup>  
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مُعْتَصِمًا  
بِالْخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الْإَيْنِ وَالتَّجْدِ<sup>(٤)</sup>  
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيِّبَ نَافِلَةً  
وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ

غير أن من يقرن هذه الصورة الجاهلية إلى صورة الأخطل الجديدة يلاحظ ما قلناه في غير هذا الموضع من أن الشاعر كان ينظر في الشعر الجاهلي ويستعير منه كثيراً من الصور ، ولم يكن يقف في ذلك عند حد التقليد ، بل كان يحاول التحوير في الصور والتجديد فيها فنوناً من التحوير والتجديد . فهذا الأخطل يأخذ من النابغة صورته التي صور بها جودَ النعمان ، إذ شبهه بالفُرات حين يعلو فيضانه ويشتد ، فيجرف ما يلقاه في طريقه من نبات وأشجار ، ولا يكتفي بذلك ، بل يحاول أن يُحدِّث في الصورة طراقة جديدة ، وهي طراقة يستمدّها أولاً من التفصيل في صورة فيضان الفرات ، وتعقبه وهو يسقط من جبال الرُّوم في انحدار شديد تتدافع معه السيول والأمواج تدافعاً ، ويستمدّها ثانياً من المقارنة نفسها ، فالنابغة يكتفي في المقارنة بين النعمان والفرات بالحدود ، أما الأخطل فيمدّها المقارنة إلى الجهارة والروعة ، فعبد الملك لا يشبه الفرات فقط في جوده ، بل يشبهه أيضاً في جسامته وروعته وفخامته . وهذا هو معنى أن الشاعر الأمرى كان يطلب التجديد في شعره .

واستمرّ في قراءة الأخطل فستجده يمدح عبد الملك قائداً لجيوشه التي ساقها لحرب مصعب بن الزبير في العراق ، وما كان من بنائه في طريقه للقناطر وهدمها ، ويصوّر كيف قضى على خصمه هناك . ثم ينتقل يمدح عبد الملك في أسرته ،

(٤) الخيزرانة : سكان السفينة ، الأين : الإعياء ، التجد : العرق الذي يصيبه بسبب الإعياء .

(١) المعلقات العشر ص ١٦٩ .  
(٢) تمرى : تحلب ، الأواذي : الأمواج ،  
العبرين : الشاطئين .  
(٣) الينبوت والخضد : ضربان من النبات .

فيسبغ عليها كل ما يعتزُّ به العربي في أرومته وبيته من أخلاق وصفات ، وهي أخلاق وصفات أعدت ، في رأيه ، بنى أمية ليسودوا الناس ، فهو يصفهم بالحلم والأتفة ومحبة الحق والصبر حين يُراد الصبر والبَطْش بالعدو حين يُرادُ البَطْش ، هذا إلى الرأي السديد الذي ينير المشاكل المظلمة ، والحظّ الذي جباهم الله به ، حظ الخلافة وملك الدولة العربية .

ولم نأت بكل الأبيات التي مدح بها الأخطل في هذه القصيدة عبد الملك ، إنما أتينا بطائفة منها لنبيِّن أن الأخطل في مديحه لعبد الملك كان يحاول جاهداً أن يجدد المديح في الشعر العربي تجديدًا يتلاءم مع عصره ، وقد لمسنا هذا التجديد في الصورة التي اقتبسها من النابغة . وليست المسألة في رأينا مسألة صورة مفردة ، فإن من يتأمل هذا المديح يلاحظ أنه اختلف في صورته العامة عن مديح الشعراء في الجاهلية ، لسبب طبيعي ، هو أننا أصبحنا بإزاء موقف في الحياة يختلف عما كان عليه الشأن قديماً ، فقد أصبح للعرب دولة أو عبارة أدق خلافة ، وأصبح لهم جيش منظم . ومن هنا اختلف موقف الشاعر الأموي عن زميله الشاعر الجاهلي ، حتى لو كان مسيحياً كالأخطل ، فإننا نراه يمدح عبد الملك الخليفة ، ثم يمدح عبد الملك نفسه في خلقه وشخصيته ، ثم يمدح عبد الملك القائد ، ثم يمدح عبد الملك سليل الأسرة الأموية .

وكثير من هذه الجوانب أوجدته الحياة العربية الجديدة ، فكان طبيعياً أن يغيّر الشعراء الممتازون في قصيدة المديح على أصواتها أو في ظلالها . وهو ليس تغييراً كلياً ، ولكنه على كل حال محاولة لتجديد وتنويع في المديح واستغلال لكل ما يمكن ، حتى يأتي الشاعر بثناء طريف يستهوي الخليفة والناس من حوله . ومن غير شك نجح الأخطل في قصيدته هذه حتى ليروى أنه حين أنشدتها عبد الملك قال له : « وَيَحْكُ يَا أَخْطَلُ أَتُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى الْآفَاقِ أَنْتَ أَشْعَرُ الْعَرَبِ ، فَقَالَ الْأَخْطَلُ : أَكُنِّي بِقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ لَهُ بِجَفْنَةٍ كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَصَلَّتْ دَرَاهِمُ ، وَأُلْقِيَ عَلَيْهِ خِلَعًا ، وَخَرَجَ بِهِ مَوْلًى لِعَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى النَّاسِ يَقُولُ : هَذَا شَاعِرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا أَشْعَرُ الْعَرَبِ (١) » .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٧/٨

وما بعدها .

وَيُعَدُّ عَصْرُ عَبْدِ الْمَلِكِ خَيْرَ عَصُورِ الْأَخْطَلِ وَأَبْهَجَهَا فِي نَفْسِهِ ، فَقَدْ خَصَّصَهُ بَعِطْفَهُ ، وَاتَّخَذَهُ سَمِيرًا وَصَدِيقًا ، فَقَرَّتْ عَيْنُ الْأَخْطَلِ وَقَرَّتْ نَفْسُهُ ، وَصَوَّرَ ذَلِكَ فِي مَدَائِحِ بَدِيعَةٍ عَلَى نَحْوِ مَا صَوَّرَهُ فِي ( خَفِّ الْقَطِينِ ) . وَقَدْ أَخَذَ يَرُدُّ مَا كَانَ يَرُدُّهُ شِعْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ اخْتِيَارِ بَنِي أُمَيَّةَ لِلْأُمَّةِ وَأَنْهُمْ أَصْلَحُهَا ، فَقَدْ اصْطَفَاهُمْ اللَّهُ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ ، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ يَقُولُ (١) :

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ      بِأَبْيَاصِ لَاعَارِي الْخِيَوَانِ وَلَا جَدْبٍ  
وَلَكِنْ رَأَى اللَّهُ مَوْضِعَ حَقِّهَا      عَلَى رَغْمِ أَعْدَائِهِ وَصَدَادَةِ كُذْبٍ  
وَيَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ ثَانِيَةٍ (٢) :

أَحِبًّا إِلَاهُ لَنَا الْإِمَامَ فَإِنَّهُ      خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ، لِلذُّنُوبِ غَفُورُ  
نُورُ أَضَاءِ لَنَا الْبِلَادَ وَقَدْ دَجَّتْ      ظُلْمٌ تَكَادَ بِهَا الْهُدَاةُ تَجُورُ

أَلَيْسَ هَذَا كُلُّهُ جَدِيدًا فِي قَصِيدَةِ الْمَدِيحِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ اخْتَلَفَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِالْقِيَاسِ إِلَى صُورَتِهَا الْقَدِيمَةِ لِاخْتِلَافِ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَوْ قَلَّ لِتَطَوُّرِهَا وَمَا حَدَثَ فِيهَا مِنْ انْقِلَابٍ سِوَا مَا مِنْ حَيْثُ نِظَامُ الدَّوْلَةِ أَوْ مِنْ حَيْثُ تَصَوُّرِ النَّاسِ لِلْخِلَافَةِ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ . وَكَانَ الشَّاعِرُ الْأُمَوِيُّ مَا يَزَالُ يَطْلُبُ التَّجْدِيدَ وَالتَّغْيِيرَ فِي الْإِطَارِ الْقَدِيمِ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْأَخْطَلِ ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ الشُّعْرَاءِ مُحَافِظَةٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَغْيِرَ فِي هَذَا الْإِطَارِ ، وَلَا نَقُولُ إِنَّهُ هَدَمَهُ ، وَلَكِنْ نَقُولُ إِنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يَجِدَّ فِيهِ ، حَتَّى يَتْلَامَ مَعَ الْعَصْرِ ، فَعَمِدَ إِلَى التَّوْلِيدِ فِي الصُّورِ الْقَدِيمَةِ كَمَا فِي صَوْتِ الْفُرَاتِ . كَمَا عَمِدَ إِلَى التَّنْوِيحِ فِي مَعَانِي الْمَدِيحِ نَفْسَهُ عَلَى نَحْوِ مَا رَأَيْنَا فِي مَدِيحِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

وَنَحْنُ لَا نَتْرِكُ عَصْرَ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى عَصْرِ ابْنِهِ الْوَلِيدِ حَتَّى نَشْعُرَ بِأَنَّ بَهْجَةَ الْأَخْطَلِ بِحُكْمِ بَنِي أُمَيَّةَ تَكَادَ تَغْيِضُ فِي نَفْسِهِ ، فَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ يَتَعَصَّبُ ضِدَّ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَقَدْ حَوَّلَ كَنِيسَةَ يَوْحَنَّا فِي دِمَشْقَ إِلَى الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ الْمَشْهُورِ ، وَعَذَّبَ أَحَدَ زُعَمَاءِ تَغْلِبَ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَرَفِضَهُ (٣) . وَطَبِيعِي أَنْ يَبَاعِدَ

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٢/١١ .

(١) الديوان ص ٢١ .

(٢) الديوان ص ٧٤ .

ذلك بين الأخطل وبين القصر الأموي بدمشق . وأن يتقدمه فيه شعراء آخرون مثل عدي بن الرقاع العاملي الذي أصبح شاعر الوليد الرسمي<sup>(١)</sup> . وانزوى الأخطل وانزوت معه سفارته لتغلب .

ومن يرجع إلى مدائحه في الوليد يجدها ضعيفة فاترة ، ليس فيها روح ولا ما يشبه الروح إنما فيها ألوان خفيفة من الحزن لإبعاد الوليد له عن القصر ولعاملته القاسية للمسيحيين<sup>(٢)</sup> . على أن الأيام لم تطُل بالأخطل ، إذ توفي أثناء السنوات الأولى من خلافة الوليد . يدل على ذلك من بعض الوجوه قلة الشعر الذي مدحه به . فإن ديوانه لا يحوي من شعره فيه سوى أربع قصائد ، ولو أن حياته طالت في عهده لأكثر من مدحه .

وإذا تركنا الأخطل إلى صاحبيه الفرزدق وجريير وجدناهما ينسبتان في شجرة كبيرة ، هي شجرة تميم ، وكانت تشغل هذه الشجرة الجزء الأكبر من شرق الجزيرة ، إذ كانت أغصانها وفروعها تمتد من البحرين واليمامة وفيافي الدهناء جنوباً إلى شواطئ الفترات شمالاً . وتوغّل على طول هذا الخط في نجد . وجعلها ذلك تجاور قبائل كثيرة ، فقد كانت تجاور في الجنوب عبدة القيس وبني حنيفة ، وكانت تجاور في الشمال أسدًا وبكرًا وتغلب ، بينما كانت تجاور في الغرب قبائل كلها قيسية ، وأهمها غطفان وهايلة .

وتميم إلى أن تكون مجموعة قبائل أقرب منها إلى أن تكون قبيلة واحدة . فقد كانت تتفرع فروعاً كثيرة ، وكل فرع يُعدُّ قبيلة قائمة بنفسها . وأحياناً يتضخم الفرع فيصبح مجموعة من القبائل ، ومن أهم فروعها بنو الهجيم وبنو مازن وبنو منقر وبلعنبر وعطارد وبنو أنف الناقة ويربوع ودارم ، ومن ربوع غداة ورياح وثعلبة وكليب قبيلة جريير ، ومن دارم بنو فقيم وبنو نهشل وبنو مجاشع قوم الفرزدق .

(٢) انظر الديوان ص ٢٣٢ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٠٧/٩ .

وقد دخلت تميم في الإسلام بعد فتح مكة . ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ارتد أكثرها وتابَعُوا مُتَنَبِّئَةً هِيَ سَجَاح ، فذهب إليهم خالد بن الوليد بجموعه ، واستطاع أن يردّهم إلى الإسلام . ولما توجه خالد وتوجه المسلمون إلى الفتوح شاركت تميم في حروب الفرس والروم ، واستمرت على ذلك طوال عصر بني أمية . وفي ذلك يقول الفرزدق<sup>(١)</sup> :

فتحتنا بإذن الله كلّ مدينةٍ من الهِنْدِ أو بابٍ من الرُّومِ مُعَلَّقِ  
وكانت تميم في الجاهلية وثنية إلا نفرًا قليلا منها اتخذوا النصرانية دينهم .  
وفي فرع من أهم فروعها هو فرع دارم وُلِدَ الفرزدق لأسرة أرستقراطية  
من بني مجاشع ، إذ كان جدُّه صَعَصَعَة أحد سادة العرب وأشرافها في الجاهلية ،  
وذاع صيته لمكرمه كان يقوم بها . وهي افتداء البنات من آبائهن بالمال حتى  
لا يتسُدَّ وهن ، ولذلك لُقِّبَ بمحبي الموعودات<sup>(٢)</sup> ، وفيه يقول الفرزدق<sup>(٣)</sup> :

أبي أحمد الغيثيين صَعَصَعَة الذي متى تُخْلِيفَ الجوزاءُ والنَّحْمُ بِمُطْرٍ  
أجارَ بناتِ الوائدينِ ومَنْ يُجِرُّ على الفَقْرِ يعلمُ أنه غَيْرُ مُخْفَرٍ  
وكان أبوه غالب على مثل جدّه . فهو أحد سادة بني تميم وأصحاب الشرف  
في الإسلام ، وكان كريمًا مفرطًا . ويؤثر عنه حادثان يدلان على أنه كان  
بحرًا فيأمنًا من بحار العرب . أما الحادث الأول فلخصه أن ثلاثة نَقَسَر من قبيلة  
كَلْب تراهنوا على أن يختاروا من تميم وبكسر أشخاصًا ليسألهم ، فأبهم أعطى  
ولم يسألهم عن نسبهم من هم كان أفضلهم ، واختار كل منهم شخصًا ،  
ووقع اختيارهم على عُمَيْر بن السليك الشيباني وطلبة بن قيس بن  
عاصم المنقرى وغالب بن صَعَصَعَة المَجَاشِعِي . وذهبوا أولاً إلى عُمَيْر ،  
فسألوه مائة ناقة ، فسألهم من أنتم ، فانصرفوا عنه إلى طلبة ، فصنع صبيعه ،  
فولّوا وجوههم نحو غالب فأعطاهم ما سألوا ، ولم يسألهم من هم . فساروا ليلة ،  
ثم ردّوا ما أخذوه ، وأخذ صاحبُ غالب الرهن<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك يقول الفرزدق<sup>(٥)</sup> :

(١) ديوان الفرزدق ص ٥٧٧ .  
(٢) أغاني (طبع الساسي) ٢/١٩ وما بعدها .  
(٣) الديوان ص ٤٧٧ .  
(٤) أغاني ٥/١٩ والديوان ص ٧٥٩ .  
(٥) أغاني ٥/١٩ .

وإذ نادى بت ككلب على الناس أيهم  
على نفسهم من نزار ذوى العلاء  
فلم يجعل عن أصحابهم غير غالب  
أحق بتاج الماجد المتكرم  
وأهل الجرائيم التي لم تهتم  
جرت بعناني كل أبيض خضرم

وأما الحادث الثاني فلخصه أن بنى يربوع وبنى دارم أصابتهم سنة ،  
فانتجعوا بلاد ككلب ، ولما حلوا هناك بادر غالب ، فعقر للناس ناقة ،  
وأطعمهم إياها ، فصنع صنيعه سحيم بن وثيل اليربوعي ، فنحرت ناقة للناس .  
فقيل لغالب : إنه ينافسك ، فقال : كلاً ! ولكنه امرؤ كريم ، وسأنظر ذلك ،  
ونحرت اثنتين من نوقه ، فصنع سحيم صنعه ، فنحرت عشرًا فنحرت سحيم  
عشرًا ، حيث نحر إليه كلها ، ويقال كانت مائة ، ويقال كانت أربعمئة (١) ،  
وكان ذلك في مكان يسمى صوءر ، كره الفرزدق في شعره ، وافتخر به  
كثيراً (٢) .

وكانت أم الفرزدق من ضيعة من أسرة شريفة من أسرها ، وتسمى لينة ،  
وهي أخت العلاء بن قرظة ، وكان شاعراً ، ويروى أن الفرزدق كان يقول :  
أتانى الشعر من قبل خالي (٣) . وكثير من فخر الفرزدق مقسم بين آباءه وأخواله ،  
وكذلك كثير من هجاء جرير له ، ومعنى ذلك أنه يتلفع بأردية الشرف من قبل  
آبائه وأخواله جميعاً .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأة الفرزدق إلا ما يؤثّر عنه من أنه قال :  
كنت أجيد الهجاء في أيام عثمان (٤) . ولعل في ذلك ما يؤكد أنه ولد في خلافة عمر بن  
الخطاب . ويقال إن أباه غالباً قدّمه إلى علي بن أبي طالب حين نزل البصرة ، وقال  
له إن ابني هذا من شعراء مضر فأجابه : علمه القرآن (٥) واستمرت هذه الوصية  
في نفس الفرزدق حتى كثّر شره ، فاعتزل الناس ، فيما يقال ، وقيد نفسه لحفظ  
آى الذكر الحكيم .

على كل حال نشأ الفرزدق وشب في هذه الأسرة الأرستقراطية التي تعترت بنفسها

(١) أغاني ٥/١٩ والتناقض (طبع ليدن) ص ٤١٤ وما بعدها .  
(٢) التناقض ص ٤١٣ - ٤١٨ .  
(٣) الشعر والشعراء ص ٢٩٦ .  
(٤) أغاني ٦/١٩ ، ٤٨/١٩ .  
(٥) أغاني ٦/١٩ .

وبكرمها وجودها ، فطبعته بطوايعها ، وأنجبتة على غيرِها . ولعلَّ مما يظور ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه باع بعض إبلٍ له في عهد زياد بن أبيه ، فلما أمسك بالمال في حجّره عيّره بعضُ الناس أنه يبيع إبله ويكتنز أثمانها ، وكان أبوه يعقيرها ، فنشر ثمن الإبل ، وألقى كل ما معه على الناس حتى ثيابه وعمامته<sup>(١)</sup> ، لينتسب في بيته ويتشبه بأبائه !

وهذا كرم فيه تهوُّرٌ وعدم مبالاة ، واحتذاء على أخلاق الجاهلية . ويتصل بذلك أنه كان يُجِير الناس ، ويجير خاصة على قبْر أبيه ، على نحو ما كانوا يصنعون في الجاهلية<sup>(٢)</sup> . ولما توفي صديقه بشر بن مروان ، وكان والياً على العراق لأخيه عبد الملك ، عقّر فرسه على قبره<sup>(٣)</sup> ، وتلك سنة جاهلية أيضاً .

ولعل في هذا كله ما يدل على أن الفرزدق كان شديد الصلة بالأخلاق الجاهلية . ويدخل في هذا الجانب عنده ما اشتهر به من فسق<sup>(٤)</sup> . وليس معنى ذلك أنه كان ينسلخ عن الإسلام جملة ، فقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أنه كان يتأثر بالإسلام ، وكان هذا التأثير يظهر في صور مختلفة .

على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تأثيره بالإسلام ، فقد كانت نفسه تتأثر في عمق بالعادات والطباع الجاهلية . ومن هنا يأتي تهوُّره في كرمه واعتداده بأبائه وما كان لهم من أجداد . وارجع إلى ديوانه فستجد أكثره يدخل في باب الفخر بالآباء والأجداد والأحساب والأنساب في عشيرته بل في تسميم كلها ، حتى ليصبح بوقها المدوي في هذا العصر .

وديوان الفرزدق في حقيقته ، يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه وتمجيداً غالباً لهم ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب ، قيلت في مديحهم والفخر بهم فخراً لا تجف مادته في نفسه ، إذ كان يستمد من معين لا ينضب ، وكأنه يتعريف من بحر تمدّه أبحر ، فهو لسان قبيلته ، وسحب الفخر بها ما تزال تتعقد شعراً على هذا اللسان الرطب برائع القول وجزله .

وأكبر الظن أننا نستطيع الآن أن نفهم كثرة المعارك اللسانية التي خاض

(٣) اللديوان ص ٢٦٨ .  
(٤) أغاني ١٩/١٩ وما بعدها .

(١) طبري ٩٥/٢ .  
(٢) اللديوان ص ٧٥٧ .

الفرزدق غمارها ، فكل قبيلة تعدت طَوْرَهَا وخاصمت تيمماً خاصمها في ديوانه . ومن هنا لم يكن اللونُ الصارخ في ديوانه المديح كما كان شأن الأخطل .

وأيضاً فهناك ظاهرة مهمة في شعره ، وهي أن الشخص الواحد نجد له عنده مديحاً كما نجد له هجاء . وتفسير ذلك أنه كان يُهاجى القبائل اليمنية والقيسية ومن يعبر عنهما من الشعراء ، فكان إذا تولّى على العراق يَمَسِّيُّ مثل يزيد بن المهلب وخالد القسرى مدحه ، فإن لم يكن والياً ، أو عُزِلَ ، هَجَّاهُ . وكذلك كان شأنه مع الولاة من قيس مثل الحجاج وعمر بن هُبَيْرَةَ الفرزاري .

فديح الفرزدق لولاة العراق من اليمَن وقيس لم يكن صادراً عن نفسه ، بل كان متافقاً فيه وهذه ظاهرة نفسية مهمة في ديوانه لم تكن موجودة في الجاهلية ، لأن القبيلة لم تكن تُضطرُّ إلى الخضوع لسلطان وال من خصومها أو منافسيها ، ولم يكن يضطر شعراؤها إلى هذا اللون من ألوان النفاق السياسي لأرباب السلطان .

وليس هذا فحسب هو الشيء الجديد ، الذي يلفتنا في مديح الفرزدق لولاة العراق ، فنحن إذا أخذنا نتأمل في مديحه وجدناه يختلف عن المديح القديم ، لسبب طبعي ، هو أن الفرزدق مُسْلِم ، يمدح ولاة خليفة الله في أرضه ، وهم كما يقومون على ولاية الناس يقضون بالعدل وينشرون الأمن ، يقومون أيضاً بمحاربة الثائرين . وكل ذلك مائل في ديوان الفرزدق ، فالحياة العربية اختلفت ، واختلف معها شعر المديح الذي يصورها . وفرق بين أن يمدح الشاعر الجاهلي سيد القبيلة ، وأن يمدح الشاعر الأموي والي العراق المُسْلِم الذي يتصف بصفات دينية هي صفات الإسلام ، واستمع إلى الفرزدق يمدح الحجاج<sup>(١)</sup> :

ولم أرَ كالحجاج عَوْنًا على الثَّقَيِّ  
بسيِّف به لله تَضْرِبُ مَنْ عَصَى  
شعبت من الدَّاءِ العِراقَ فلم تدعْ  
وكنَّا بأرضِ يا بن يوسف لم يكن  
وما تُبْتَغَى الحاجاتُ عندك بالرُّشا  
وما الناسُ إلا في سبيلين ، منهما

ولا طالباً يوماً طَرِيْدَةً تابلٍ<sup>(٢)</sup>  
على قَصْرِ<sup>(٣)</sup> الأعناقِ فوق الكواهل  
به ريبةٌ بعد اصطفاقِ الزلازل  
يُبالي بها ما يَرْتَشِي كلُّ عامل  
ولا تُقْتَصَى إلا بما في الرِّسائل  
سبيلٌ لحقٍ أو سبيلٌ لباطل

(٣) القصر : أصل المتق .

(١) الديوان ص ٦٩٥ .

(٢) تابل : من التبل وهو النار .

ومن المؤكد أن هذه معان لم تكن تخطر ببال المقصدين للمديح في الجاهلية ، فلم يكونوا يمدحون بالتَّقَى ، ولا كانوا يصفون ممدوحهم بأنهم سيوف الله ، ولا كانوا يذكرون الرِّشوة ، ولا الحق والباطل . وقد استرسل الفرزدق في هذه القصيدة يصف كيف قضى الحجاج على ثورة اندلعت في العراق . وكل ذلك جديد في قصيدة المديح العربية .

وأظننا الآن نستطيع أن نفهم كيف أن هذه القصيدة تطوّرت عند الشعراء المسلمين أكثر مما تطوّرت عند المسيحيين من أمثال الأخطل ، لسبب طبيعي ، هو اعتداد الشاعر المسلم بالمثاليّة الجديدة التي جاء بها دينه ، فوضعها نُصَبَ عينيه في مديحه ، وأخذ يُشَبِّهُ لممدوحه الصفات التي يريدها الإسلام . ومن هنا كانت قصيدة المديح عند الأخطل ، على الرغم من أنه نوعٌ فيها وسحاول أن يجددها ، أكثر محافظة واتصالاً بالقديم من قصيدة الفرزدق وغيره من الشعراء المسلمين في هذا العصر .

ومهما يكن فإن قصيدة المديح لم تعد تجرى على النمط القديم أو الأسلوب القديم ، لأن الحياة اختلفت وانتقل العرب إلى أقاليم جديدة . وأسَّسوا دولة دينية ، تعتق مثالية جديدة ، وأيضاً فإن انطباعات الحياة الخارجية اختلفت ، فلم يكن في العصر الجاهلي ثائرون على القبيلة يحاربونها من ذات نفسها . أما في هذا العصر فنحن بصدد حياة جديدة ، فيها أخلاقية تستمد من الإيمان بالله ورُسُلِهِ والعمل الصالح ، وفيها دولة يريد القائمون عليها أن يعمّ العدل وأن يَسْتَتِيبَ الأمن وأن تجتمع الأمة على كلمة واحدة ، ومع ذلك فهناك ثائرون وخوارج كثيرون . وليس هذا فحسب ، فإن والى العراق عليه ، بجانب حربه للخوارج والثائرين ، أن يبعث بجيوشه إلى خراسان ، فالفتح الإسلامي لا يزال قائماً . وكل ذلك نجده ماثلاً في قصيدة الفرزدق حين يمدح الحجاج أو يمدح غيره من ولاة العراق .

وإذا تركنا هؤلاء الولاة إلى الخلفاء نريد أن نعرف كيف كان يمدحهم الفرزدق ، كان أول ما نلاحظه عليه أن ديوانه ليس فيه مديح لمعاوية ولا لابنه يزيد . وأغلب الظن أن الفرزدق لم يمدحهما ، لأنه كان يحمل نفساً متمردة ، كانت تخضع

للسلطان القريب كسلطان الحجاج فتَضَطَّرَ إلى مديحه ، أما السلطان البعيد فلم تكن تخضع له ولا كان يهملها في شيء ، بل إننا نجد في ديوانه قطعة يتهدد فيها معاوية ويتوعده حين حبسَ جائزة أعطاها لعمه الحنات ، إذ توفى قبل مبارحته الشام ، فرأى معاوية أن يستردها<sup>(١)</sup> . وفي أخباره أن زياد بن أبيه اضطرَّ إلى مطاردته حين سمع بثرة الأموال التي باع بها إيلته في المربرد وأيضاً فإنه رآه يهجو بني فُتَيْمٍ هجاءً قبيحاً ، فطلبه ، وعلم الفرزدق ، ففرَّ منه إلى سعيد بن العاص وإلى معاوية على المدينة ، وفي ذلك يقول<sup>(٢)</sup> :

أَلَا مَنْ مَبْلِغٌ عَنِّي زِيَادًا      مُغْلَغَلَةً يَخْبُ بِهَا الْبَرِيدُ  
بَأَنِّي قَدْ فَرَرْتُ إِلَى سَعِيدٍ      وَلَا يُسْطَاعُ مَا يَحْمِي سَعِيدُ  
فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ لَيْثٍ هِزْبَرٍ      تَعَادَى عَنْ فَرِيَسْتِهِ الْأَسْوَدُ

واستمرَّ الفرزدق في الحجاز منذ تعقَّبه زياد سنة خمسين للهجرة<sup>(٣)</sup> حتى توفي سنة أربع وخمسين .

ولما تطورت الأمور بعد موت معاوية وابنه يزيد وأصبح العراق كله لابن الزبير وقف الفرزدق بعيداً عنه وعن شيعته . وحدث أن زوجه النوار بلحأت إلى ابن الزبير في مكة تريد أن يسرَّحها منه<sup>(٤)</sup> ، فتبعته نفسه هناك حيث حاول أن يقف بينها وبين غايتها ، واتخذ حمزة زُلْفَى إلى أبيه عبد الله ، بينما اتخذت النوارُ حَوَالَةَ بنت منظور زوجه زُلْفَى إليه ، واستجاب عبد الله لزوجها ، فانقلب الفرزدق يفخر عليه ، ويعرَّض به من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

أَمَا بَنُوهُ فَلَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهُمْ      وَشَفَعَتْ بِنْتُ مَنْظُورِ بْنِ زَبَانَ  
لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُؤْتَرّاً      مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْبَانَا

وقوله<sup>(٦)</sup> :

أَعْبَدَ اللَّهُ مَهَلًا عَنْ أَدَانِي      فِلَانِي لَا الضَّعِيفُ وَلَا السَّوْمُ

(١) الديوان ص ٥٦ .  
(٢) أغاني ٣١/١٩ .  
(٣) طبرى ١٠٧/٢ .  
(٤) الكتب ٣٢٦/٩ وما بعدها وأغاني (طبع الساسي) ٧/١٩ ما بعدها .  
(٥) أغاني ٣٢٧/٩ .  
(٦) أغاني ٣٢٨/٩ .

(٤) انظر قصتها في الأغاني (طبع دار

ولكني صفاة\* لم تؤبَس\* تَزَلُ الطَّيْسُ عنها والعصوم<sup>(١)</sup>

واشتعلت الحرب - فيما يظهر - بينه وبين ابن الزبير وولاته في العراق وأنصاره من قيس هناك . يدل على ذلك أكبر الدلالة أنه بدأ حينئذ يدخل في معارك الهجاء مع معاصره جرير الذي كان يقف في صف ابن الزبير وولاته وقيس الضالعة معه . وله قصيدة فيه وفي القُبَاع ( الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ) وإلى البصرة لابن الزبير حينئذ ، يقول فيها للقُبَاع<sup>(٢)</sup> :

وقبلك ما أعْيَيْتُ كاسِرَ عَيْنِهِ      زياداً فلم تَقْدِرْ عليَّ حباثته\*  
فأقسمتُ لا آتِيه سَبْعِينَ حِجَّةً      ولو كُسِرَتْ عُنُقُ القُبَاعِ وكاهله\*  
وبَيِّنُ أن هذا تمرُّد واضح على العهد الجديد عهد الزبيريين . ولعل ذلك هو الذي أتاح لانعقاد الصلة والصدقة بينه وبين بشر بن مروان حين أصبح والياً على العراق من قبل أخيه عبد الملك . وسرعان ما توفى بشر وأقبل الحجاج القيسي فاضطر إلى مديحه ليتقي يده وشره ، وفي أثناء ذلك كان يمدح عبد الملك ، ولكنه لم يتحوّل إليه نهائياً بعامل ما فطرت عليه نفسه من تمرُّد .

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أنه حاول أن يقف في صف عبد العزيز ابن مروان حين أراد عبد الملك أن يخلسه من ولاية العهد ويولى ابنه الوليد مكانه ، ففي ديوانه قصيدة يمدحه بها ، أو بعبارة أدق يرثيه بها حين علم بوفاة<sup>(٣)</sup> ، وكان حينئذ في الشام . ولا نستطيع أن نفهم وجوده في الشام ، وهو لا يقيد على عبد الملك ، إلا على أنه كان يريد مصر وزيارة عبد العزيز ، فعمّج الموت إليه ، وحال دون رغبة الفرزدق ، ولا ريب في أن رغبته هذه عرفت لعبد الملك وابنه الوليد ، فاستمر بعيداً عن القصر .

ولما حاول الوليد أن يخلع سليمان أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لابنه عبد العزيز ودعا إلى ذلك الحجاج وأنصاره في العراق ظل الفرزدق بعيداً بسبب هذه النفسية المتمردة فيه ، بل لعله دعا إلى سليمان بعد وفاة الحجاج ، فقد توفي قبل الوليد . وولى الأمر سليمان فقرأ به منه ، وحينئذ يصبح الفرزدق شاعراً أمويّاً بالمعنى

(١) تويس : تكسر . العصوم : الظباء .

(٢) الديوان ص ٧٣٩ ، وانظر البيان

١٩٦/١ .

(٣) الديوان ص ٢٢٥ .

الدقيق لهذه الكلمة ، إذ نراه يَحْطِبُ في حَبْلِ الأُمويين ويصبح داعية من دُعائهم وقد سجّل في شعره هذا التحول الذي صار إليه في عهد سليمان ، إذ يقول له من شعر<sup>(١)</sup> :

تركتُ بَنِي حَرْبٍ وَكَانُوا أئِمَّةً      وَمِرْوَانَ لَا آتِيهِ وَالْمُتَخَيَّرَا  
أَبَاكَ وَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ أَرَادَنِي      لِيَفْعَلَ خَيْرًا أَوْ لِيُؤْمِنَ أَوْ جَرَا<sup>(٢)</sup>  
فَمَا كُنْتُ عَنْ نَفْسِي لِأَرْحَلَ طَائِعًا      إِلَى الشَّامِ حَتَّى كُنْتُ أَنْتَ الْمُؤَمَّرَا

فهو يعلن إلى سليمان أنه لم يقد على خليفة أموي قبله ، وأنه أصبح شاعره الذي يلهجُ بذكره والثناء عليه ، بل الذي يدعو له ويتغنى باسمه ومآثره ، وقد ذهب يُشيد به وبآبائه على نحو ما نجد في قوله<sup>(٣)</sup> :

وَمِنْ عَبْدِ شَمْسٍ أَنْتَ سَادِسُ سُنَّةٍ      خِلَافَةَ كَانُوا مِنْهُمْ الْعَمُّ وَالْأَبُ  
هُدَاةً وَمَهْدِيَّيْنِ عِمَانَ مِنْهُمْ      وَمِرْوَانَ وَابْنَ الْأَبْطَاحِينَ الْمَطِيبُ

وتقدم في غير هذا الموضع أن كلمة المهدي لعبت عند الشيعة دوراً واسعاً ، والآل يقرّضها الفرزدق وأمثاله من شعراء بني أمية ليخلعوها على الخلفاء الأمويين ، وقد اقترضوا معها كثيراً من الصفات التي كان يقررها الشيعة في أئمتهم . واستمع إلى الفرزدق يقول في سليمان<sup>(٤)</sup> :

أَنْتَ الَّذِي نَعَتَ الْكِتَابُ لَنَا      فِي نَاطِقِ التَّوْرَةِ وَالزُّبُرِ  
كَمْ كَانَ مِنْ قَسٍّ يُخَبِّرُنَا      بِخِلَافَةِ الْمَهْدِيِّ أَوْ حَبِيرِ  
جَعَلَ الْإِلَهُ لَنَا خِلَافَتَهُ      بَرَاءَ الْقُرُوحِ وَعِصْمَةَ الْجَبِيرِ  
كَمْ حَلَّ عَنَا عَدْلُ سُنَّتِهِ      مِنْ مَغْرَمِ ثِقَلٍ وَمِنْ لَاصِرِ

وهذه نفس نعمة الشيعة في وصف أئمتهم وما يُسبغون عليهم من صفات وعلامات قُدسيّة ، وإنه ليشيد باصطفاء الله سليمان لولاية المسلمين ، ويتعرض لحكمه وما امتاز به من عدل وإحياء للسنة النبوية .

(١) الديوان ص ٨٨ .  
(٢) الديوان ص ٣٢٧ .

(١) الديوان ص ٢٤٠ .  
(٢) الأوجر : الخائف .

واستمر الفرزدق بعد سليمان يَفْرَزَع إلى خلفاء بني أمية في دمشق ، ولكن كانت تعاوده نزعة التمرد من حين إلى حين ، فنحن نجده في عهد يزيد بن عبد الملك يُشَبِّط الناس عن الخروج لقتال يزيد بن المهلب حين ثار على بني أمية<sup>(١)</sup> ومع ذلك نراه يمدح يزيد بن عبد الملك ، ويغلو في مديحه على نحو ما نرى في قوله<sup>(٢)</sup> :

ولو كان بَعْدَ المصطفى من عباده      نبيُّ لهم منهم لأمر العزائم  
لكنت الذي يختاره الله بعده      لحمل الأمانات الثقال العظام  
ورثتم خليل الله كل خزانة      وكل كتاب بالنبوة قائم  
وحبيلك حبيل الله من يعتصم به      إذا ناله يأخذ به حبيل سالم

وأظن أنه قد اتضح الآن وضوحاً لا لبس فيه أن قصيدة المديح تطورت عند الفرزدق ودخلها جديد كثير بحكم أن الخلفاء كانوا يقومون على دعوة الإسلام ، وكان يُطَلَّب فيهم أن يكونوا القدوة المثلى للمسلم ، فانبرى الفرزدق يمدحهم من هذا الجانب كما انبرى يتحدث عن حكمهم الصالح ، وفي أثناء ذلك نراه يعرض للثائرين عليهم ، فيهجوهم .

وظل الفرزدق يردّد هذه النغمات في مديح يزيد ومديح هشام بن عبد الملك ، غير أن الأمور فسدت بينه وبين الأخير ، إذ ولّى على العراق خالد القسري ، وكان مشهوراً بعصبيته الشديدة لليمينية على المضريّة ، واضطهد تيمماً وولاتها في خراسان ، وقتل نفراً منها ، فتعرض له الفرزدق بالهجاء ، وهجا معه سيده هشاماً وقال فيه بيته المشهور<sup>(٣)</sup> :

يقلّب عيسناً لم تكن لخليفة      مشوّهةً حوّلاء بادِ عيوبها

وحبسه خالد ، فتحول إلى مديحه ومديح سيده حتى يخلصاه من سجنه . وفي ديوانه مدائح كثيرة في هشام ، ولكنها فاترة ، وليس فيها عاطفة . وما لبث أن وافاه القدر في سنة أربع عشرة ومائة<sup>(٤)</sup> ، فاستراح من هذا التمرد الهائل الذي

(٣) الديوان ص ٥١ .

(٤) أغاني ٤٥/١٩ .

(١) الديوان ص ٥١٦ .

(٢) الديوان ص ٨٢٩ .

اشتملت عليه نفسه ، والذي لم يكن يستطيع أن يخلص منه ، أو ينفك عنه ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

ولم يكن الفرزدق الشاعرَ التميميَّ الفدَّ وحده في هذا العصر ، فقد كان يزاحمه وينافسه في إمارة الشعر بتميم والعراق عامة ابنُ عمه جرير الذي وُلِدَ بالهامة ثم ارتحل إلى البصرة<sup>(١)</sup> . وكان جرير من كَلْتَيْبِ أحد غصون يَرْبُوع ، وهو غصن كانت أوراقه جافة وأليافه يابسة إلى حد ما ، فلم تكن له نُضْرَةٌ غُصْنِ دارِمٍ ومُجَاشِعِ قوم الفرزدق ولا اخضرار أوراقه ، فجاشع كانت في الذروة العليا من تميم ، أما كليب فكانت في السَفْحِ والطبقة الدنيا ، ويعبِّرُ المؤرخون لجرير عن ذلك ، فيقولون إن قومه كانوا يرعون الغنم والحمير<sup>(٢)</sup> فهم ليسوا أهل إِبِلٍ وخيل . وكان جرير يعترف بذلك ، بل كان يفخر به ، فقد كان يرى نفسه زهرة جميلة نبتت في تربة ليس من شأنها أن تُسَمِّيَتَ الزهر . روى الرواة أن شخصاً سأله مَنْ أشعر الناس ؟ فقال له : قَمٌّ حتى أعرفك الجواب ، فأخذ بيده ، وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عَنَزْرًا له فاعتقلها ، وجعل يَمْصُصُ غَسْرَعَهَا ، فصاح به : اخرج يا أبتِ ، فخرج شيخ دَمِيمٍ رَثٌ المهيتة ، وقد سال لبْنُ العَنَزْرِ على لحيته ، فقال ألا ترى هذا ؟ قال نعم ، قال أوتعرفه ؟ قال لا ، قال هذا أبي ! أفتدري لِمَ كان يشرب من ضَرَعِ العنز ؟ قال الرجل : لا ، فقال جرير : مخافة أن يُسْمَعَ صوتُ الحَلْبِ ، فَيُطَلَّبَ منه لبْنُ<sup>(٣)</sup> .

لم يكن عطية أبو جرير مثل غالب أبي الفرزدق في سؤدده وشرفه ، إذ كان من طبقة أخرى . ومعنى ذلك أن جريراً لم يكن له من الشرف والسيادة ما يعتز به أمام سيادة الفرزدق وشرفه ، ولكن ذلك إن كان قد فاته في النسب فإنه لم يفته في الشعر والفن ، إذ استطاع أن يصل إلى مرتبة رفيعة فيهما لا تقل عن مرتبة الفرزدق صاحب الحسب والنسب الرفيع .

وعلى كل حال ، فإن هذه النشأة المتواضعة لجرير ، جعلت نفسيته تخالف نفسية الفرزدق من وجوه كثيرة ، فلم يكن يعتز بأبائه وبقبيلته اعتزاز الفرزدق

(٣) أفانق (طبع دار الكتب) ٤٩/٨ .

(١) الشعر والشعراء ص ٢٨٦ .

(٢) انظر النقاقتن ص ٢٨٠ ، ٦٠٤ .

بآبائه وقبيلته . ولعلَّ ذلك ما هيأه لأن يعيش حياته مجاهداً عن قيس ضد الأخطل وضد الفرزدق وتميم ، وقد ترجع أسباب ذلك إلى أموال كانت نصَّبُ في حجِّره من قيس لا إلى زُبَيْرِيَّة قيس وزبيريته فحسب . يدل على ذلك أننا نجد الفرزدق يُعَيِّرُهُ بما يُصِيب من قيس في نقائضه معه<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن السبب أو الأسباب فإننا لا نستطيع أن نفهم وقوفه في صف قيس إلا على أنه لم يكن يحسُّ إحساس الفرزدق بقومه ، ولذلك رضى أن يقف في صفوف خصومهم ، ولعل من الغريب أن نجده يمدح الأعاجم ، فيقول<sup>(٢)</sup> :

وَيَجْمَعُنَا وَالغُرَّ أَوْلَادَ سَارَةَ  
أَبُ لَا نَبَالِي بَعْدَهُ مِنْ تَعْدَرَا

ومديح الأعاجم في هذا العصر كان يعدُّ كبيرة من الكبائر ، ولكنها نفسية جرير التي لم تكن تستشعر العصبية العربية ولا العصبية القبلية على نحو ما يستشعرهما الناس والشعراء في عصره . ومن هنا لم يجد بأساً أن يعيش حياته يتغنَّى باسم قيس وما أثرها في الجاهلية والإسلام .

وليس هذا كل ما يلاحظ على اختلاف نفسية الشاعرين ، فنحن نلاحظ أيضاً أن صلة الفرزدق بآبائه واعتداده بأرستقراطيته وأمجاده ، كل ذلك جعله لا يتأثر بالإسلام تأثراً عميقاً على نحو ما تأثر جرير به ، فبينما يُعرف هو بِفِسْقِهِ يُعرف جرير بعفافه<sup>(٣)</sup> . ويرَوِي الرواة أنه رأى جريراً مُحْرِمًا ، فقال والله لأفسدنَّ عليه حجَّته ، ثم جاءه مستقبلاً له ، وقال :

وإِنَّكَ لَأَقِي بِالْمَشَاعِرِ مِنْ مِثِّي  
فَخَذَارًا فَخَبِرْنِي بِنِ أَنْتَ فَاخِرُ

فقال جرير : لَسَبَّيْكَ اللَّهُمَّ أَيْبُكَ وَلَمْ يُجِيبْهُ<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك دلالة واضحة على اختلاف النفسيتين وأن الإسلام كان يتعمق نفسية جرير بأكثر مما يتعمق نفسية الفرزدق .

كانت نفسية جرير هيئَةً لَسِيَّةً ، فيها تواضع وفيها استكانة ، فلم يكن فيها هذا العنف الذي اشتملت عليه نفسية الفرزدق ولا هذا التمرد الذي صورناه ،

(٣) أغاني ٥/٨ .

(٤) البيان ١٨١/٢ .

(١) النقائض ص ٣٧٧ .

(٢) أغاني ٦٥/٨ وما بعدها .

بسبب تعمق الإسلام فيه من جهة ، وبسبب التواضع في نشأته وأسرته من جهة ثانية . وإذا كان قد مدح الأعاجم وعاش يمدح قيساً ، فأولى به أن يمدح أولى الأمر من بني أمية .

وأول خليفة أموي وَقَدَ عليه يزيدُ بن معاوية ، فقد روى عنه أنه قال : « وفدت إلى يزيد وأنا شاب ، فاستؤذن لي في جملة الشعراء . . . فدخلت ، وأنشدته ، وأخذت الجائزة معهم ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة (١) » . وليس في ديوان جرير شعرٌ في مديح يزيد ، فلما أن يكون ما نظمه فيه ضاع ، أو تكون هذه الرواية غير صحيحة .

ولما تبعت العراقُ ابنَ الزبير رأيناه يَحْطِبُ في حَبْلٍ ولاته وعلى رأسهم القُبَاع ، كما أخذ يحطب في حبل قَيْسٍ مما جعله يصطدم بابن عمه الفرزدق كما أشرنا إلى ذلك مراراً . وانتطح الوعلان التميميان واستمرّا على ذلك إلى آخر أيامهما . وقد ظلَّ في نقائضه مع الفرزدق يذكر قتل قومه للزُبَيْر بن العَوَّام ، فإن قاتله كان من مجاشع (٢) . وربما كان من الأدلة على زبيريته في هذه الفترة أن نجد بِشْر بن مروان حين يُوَلِّي على العراق بعد القضاء على ابن الزبير يعده عنه ، ويدعو الشعراء إلى هجائه ، وكأنه يراه شاعر خصومه (٣) .

وسرعان ما دخل جرير فيما دخل فيه أهل العراق ، فمدح بشراً (٤) ، ولما ولي العراق الحجاج الثقفي القيسي قرَّبه منه حتى أصبح شاعره الرسمي غير مدافع ولا منازع ، وليس من ريب في أن وقوفه مع قيس كان سبباً مهماً في رضا الحجاج عليه وجدَّ به إليه .

ومن يقرأ شعره في الحجاج يكبر من شخصيته ، والحق أن الحجاج شوَّه الرواة في العصر العباسي إرضاء للعلويين والعباسيين جميعاً ، وطبعاً كانت فيه قسوة ولكنها كانت قسوة ضرورية ، وإن من يقرأ وصف جرير له ليعرف أنه كان يتَّبع سياسة حازمة رشيدة ، واستمع إليه يقول في ملحه (٥) :

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري ١٦٨/٥ .

(٥) الديوان ص ٩٠ .

(١) أغاني ٣٦/٨ .

(٢) انظر الديوان (طبعة الصاوي) ص ٤٧، ٣٣٨ .

(٣) أغاني ١٨/٨ وكذلك ٣١٥/٨ .

مَنْ سَدَّ مَطْلِعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ  
 إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ فاعَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا  
 ماضٍ عَلَى الغَمَمَرَاتِ يُمَضِّي هَمَّهُ  
 مَتَعَ الرُّشَا وَأَرَاكِمُ سُبُلِ الهُدَى  
 وَلَقَدْ كَسَّرَتْ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ  
 أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الحُجَّاجِ  
 ماضٍ البَصِيرَةَ وَاضِحُ المِنْهَاجِ  
 وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَاقِ دَاجِي  
 وَاللَّصُّ نَكَلُهُ عَنِ الإِدْلَاجِ  
 وَلَقَدْ مَنَعَتْ حَقَائِبَ الحُجَّاجِ

فهو يصفه بالشجاعة ونفاذ البصيرة ووضوح المنهج واختراق عزيمة للشدائد ، وانطلاقه في الأمور . ويعطف على سياسته فيبينُ رَشْدَهَا وما أَفَاءَتْ عَلَى النَّاسِ ، فقد منع الرشوة وأمن الطرق من اللصوص ، وأصبح الحُجَّاج لا يخافون على حقائبهم نَهْبًا وَلَا سَلْبًا . وبذلك قضى الحجاج على كل فساد في العراق سواء كان ماديًّا أو معنويًّا ، فإن يده امتدت أيضًا إلى الفساد النفسى وإلى هذه الآفة التي تسمى النفاق ، فعالجتها في أصحابها وقضت على أفاعيها وممومها . وعلى هذه الشاكلة يصور جرير في مدائحه للحجاج سياسة قويمة ، تقوم على اتباع سُبُلِ الهدى ، واستمع إليه يقول (١) :

وَيُنْتَنَانِ فِي الحُجَّاجِ لَا تَرُكُ ظَالِمٌ  
 قَدِمْتَ عَلَى أَهْلِ العِرَاقِ وَمِنْهُمْ  
 فَكُنْتَ لِمَنْ لَا يُبْرِي الدِّينَ قَلْبَهُ  
 سَوِيًّا وَلَا عِنْدَ المُرَاشَاةِ نَاقِلُ  
 مَخَالَفُ دِينِ المُسْلِمِينَ وَمَخَازِلُ  
 شَفَاءٌ وَخَفٌّ المُدْهِنِ المُتَسَاوِلُ

وكان هذا الشعر يصل إلى أذن عبد الملك ، فكان يغبط الحجاج على شاعره ويتمنى أن لو صار إليه ، وعرف الحجاج ذلك ، فأرسل إليه به مع ابنه محمد ، ولما مثل بين يديه أنشده قصيدته التي يقول فيها بيته المشهور :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا  
 وَأَنْدَى العَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ  
 وأعجب به عبد الملك ، وأعطاه مائة ناقة وثمانية من الرعاء (٢) ، وذكر ذلك جرير في شعره (٣) ، ومن حينئذ أصبح شاعر بني أمية : عبد الملك وأبنائه ، يتشبع لهم ، ويدعو دعوتهم ، وينفخ مع أنصارهم في بوقهم بكل ما أوتى من حَوْلِ فَنَى وقوة .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(١) الديوان ص ٤٤١ .  
 (٢) أغاني ٦٦/٨ وما بعدها .

وأمية جرير من هذه الناحية أقوى من أموية الفرزدق ، فقد كان الفرزدق ، متمرداً ، ولم يتصل ببني أمية ولم يصبح شاعراً حقاً لهم إلا منذ سليمان . أما جرير فلم يكن متمرداً ، بل كان فيه ضراعة ، أعدته للحاق بعبد الملك منذ أول الأمر . ولم تكذب تسميته يندُ عبد الملك حتى تحوّل داعية له ولأبنائه في العراق ، بل في العالم الإسلامي كله ، فقد كان شعره ينديع في كل مكان ، وأخذ يُسبغ عليهم جميعاً كل ما أسبغه الشيعة على أئمتهم ، واستمع إليه يقول في عبد الملك (١) :

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرؤهُ      ما قام للناس أحكامٌ ولا جمعُ  
أنت الأمينُ أمينُ الله لا سرفُ      فيما وليتَ ولا هيابةٌ ورعُ (٢)  
أنت المباركُ يَهْدِي اللهُ شيعتهُ      إذا تفرقتِ الأهواءُ والشيعُ  
فكلُّ أمرٍ على يَمْنِ أمْرَتِ بهِ      فينا مطاعٌ ومهما قلتِ يستمعُ  
يا آلَ مروانَ إنَّ اللهَ فضلكمُ      فضلاً عظيماً على من دینه البِدعُ

فبعد الملك عمود الدين ، ولولاه ما انعقدت أحكام الإسلام ولا انعقدت صلواته ، فهو أمين الله في أرضه وعلى عباده ، وهذا القرآن يقرؤه ، وهذه أوامره تستمد كلها منه ، وهي كلها أوامرٌ يُمنُّ يأتيها الناس عن طاعة ورضاً . ويقول جرير إن هذا فضلٌ عظيمٌ اختصَّ به الله سبحانه آل مروان ، ورفعهم به درجات فوق الناس من خوارج وشيعة وغيرهما ممن يبتدعون البدع في الدين ، فهم أهل الكتاب والسنة ، وخصومهم أهل البدعة والإلحاد . وهذه كلها عناصر دينية يمدح بها جرير عبد الملك ، وكأنه شيعيٌ يمدح إماماً شيعياً . واستمع إليه يقول في عبد الملك من قصيدة أخرى (٣) :

اللهُ طَوَّقَكَ الخِلافةَ والهُدَى      واللهُ ليس لما قضَى تبدِيلُ

وفي هذا البيت إشارة إلى فكرة المهدي من جهة وإشارة إلى مذهب الجببرية من جهة ثانية ، فكلُّ شيء بقضاء وقدر ، ولا سبيل إلى التبديل والتغيير في أي شيء . وكان بنو أمية ، كما أسلفنا ، يذيعون هذا المبدأ ، حتى ينصرف الناس عن

(٢) الديوان ص ٤٧٤ .

(١) الديوان ص ٣٥٥ .

(٢) الورع هنا : الجبان .

التفكير في خلافتهم ومحاولة تبديلها أو صرفها عنهم ، فالله جلَّ وعزَّ شاء أن يكونوا هم خلفاء رسوله ، ولا راداً لمشيئته ، ونجد هذه الفكرة منتشرة في شعر جرير ومدبجيه لهم ، وكأنه يريد أن يقررها تقريراً . واستمع إليه يقول هذه الفكرة في الوليد<sup>(١)</sup> :

إِنَّ الْوَلِيدَ هُوَ الْإِمَامُ الْمُصْطَفَى      بِالنَّصْرِ هُزَّ لَوَاؤُهُ وَالْمَخَنَمِ  
ذُو الْعَرْشِ قَدَّرَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً      مُلَكْتَ فاعْلُ عَلَى الْمَنَابِرِ وَأَسْلَمِ

فهو يقول في الوليد ما قاله في أبيه من أن خلافته قدَّرَ مقدور ، قدَّره العليُّ العظيم صاحب العرش والأمر الذي تصدر عنه أعمالنا في الكون صدور الضوء عن الشمس ، فلا يمكن ردّها ، لأنها تصدر بقضاء نافذ محتوم .

وعلى هذه الشاكلة كان جرير يدعو في مدائحه للأمويين إلى هذا الجبر في القضاء ، فخلافتهم قدَّرَ مقدور منذ الأزل<sup>(٢)</sup> . وكذلك أوامرهم وسياستهم وكل ما يصدر عنهم ، حتى ما قد يكون من سفك دماء ؛ فأعمال الإنسان تُحكَّم بقوة إلهية خارجة عن سلطانه ، وهي قوة أعطى الله صَوْلِحَانَهَا لِبْنِي أُمِيَّة ، فهم خلفاء الله ورسوله في الأرض وعلى العباد يُنْقَدُونَ مشيئته وإراداته ، وليس للعباد إلا أن يرضوا عنهم ، ويصُدَّعُوا بمشيئتهم ، لأنها تستمد من مشيئة الله! . ويكرّر جرير دائماً هذه النعمة في شعره كما يكرّر معها نعمة تفضيل الله لبني أمية على الناس إذ اختارهم للخلافة ، وأيضاً يكرّر صفات الكرم والعدالة والافتداء بالكتاب والسنة ، فهم الهادون المهديون الذين يتبعونهم وأنصارهم سبيل الرشد . واستمع إليه يقول في سليمان<sup>(٣)</sup> :

سُلَيْمَانُ الْمُبَارَكُ قَدْ عَلِمْتُمْ      هُوَ الْمَهْدِيُّ قَدْ وَصَحَ السَّبِيلُ  
أَجْرَتْ مِنْ الْمَظَالِمِ كُلِّ نَفْسٍ      وَأَدَيْتَ الَّذِي عَهْدَ الرَّسُولِ  
صَفَتْ لَكَ بَيْعَةٌ بِشَبَابِ عَهْدٍ      فَوَزَنَ الْعَدْلَ أَصْبَحَ لَا يَسْمِيلُ

فهو يصفه بالعدل وردّ المظالم عن الناس كما يصفه بأنه مهديٌّ مبارك ، من اتبعه سلك سبيل الهدى ، ومن تركه سلك طريق الضلال . وحاول سليمان أن يصرف

(٣) الديوان ص ٤٣٢ .

(١) الديوان ص ٤٩٢ .

(٢) أنظر الديوان ص ٢٧٥ .

ولاية العهد إلى ابنه أيوب ، فترسَّع جرير يقول فيه (١) :

إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي تُرْجَى نَوَافِلُهُ      بَعْدَ الْإِمَامِ وَلِيَّ الْعَهْدِ أَيُّوبُ  
اللَّهُ أَعْطَاكُمْ مِنْ عِلْمِهِ بِكُمْ      حُكْمًا وَمَا بَعْدَ حُكْمِ اللَّهِ تَعْقِيبُ  
أَنْتَ الْخَلِيفَةُ لِلرَّحْمَنِ يَتَعَرَّفُهُ      أَهْلُ الزَّبُورِ فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبُ

وكان جرير يستجيب دائماً لمثل هذه الرغبة حين يريد خليفة أن يصرف ولاية العهد دون أخيه لابنه ، صنَّع ذلك مع عبد الملك حين أراد أن يحول ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، وصنع ذلك مع الوليد حين أراد أن يترك سليمان إلى ابنه عبد العزيز ، وهو الآن يصنعه مع سليمان حين أراد أن يصرف ولاية العهد عن أخيه يزيد إلى ابنه أيوب ، وقد رأى أخيراً أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز .

وهذا لا يهمنا بصدد ما نتحدث عنه من أن جريراً عُنِيَ في مدائحه للأمويين بأن يدعو لهم على نحو ما يدعو شعراء الشيعة لأئمتهم . وشعره من هذه الناحية طريف طرافة ممتازة ، إذ يطلعنا على بعض الطرق التي كان يتخذها الأمويون ضد خصومهم ، فهم يسلكون إلى الدعوة لهم مذهباً عقلياً عُرف في عصرهم ، هو مذهب النَجْبَرِيَّة ، وينادونهم وشعراؤهم ، وعلى رأسهم جرير ، في الناس به . وليس هذا فحسب ، بل يصفون أنفسهم ، بل قُلْ يصفهم شعراؤهم بكل الصفات القدسيَّة التي يُسبِّغها الشيعة على أئمتهم . ولا فارق مطلقاً بين هذا الشعر الذي رويناه لجرير وشعر الكميَّت مثلاً في الهاشميين . واستمع إلى جرير يقول في يزيد بن عبد الملك (٢) :

زَانَ الْمُنَابِرَ وَاخْتَالَتْ بِمُنْتَجَبٍ      مُسَبَّتٍ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورٍ

ولا يملُّ جرير تكرار هذه النغمة في مدائحه لبنى أمية لأنها في الواقع النظرية التي كانوا يحكمون على أساسها ، وقد أمعن في وصفهم بصفات جليلة كالعدل والهدى والأمانة والإمامة والسَّير على منهاج الكتاب والسنة . ومن حين إلى حين يعرض لخصومهم وأنهم ضلوا سواء السبيل ، ومن هنا انتشرت في شعره المقارنة بين

الثائرين على الأمويين وقوم نوح وهود وشمود من مثل قوله في يزيد بن المهلب حين  
ثار وقتله الأمويون<sup>(١)</sup> :

أَلُ الْمَهْلَبِ فَرَطُوا فِي دِينِهِمْ ۖ وَطَعَرُوا كَمَا فَعَلَتْ تَمُودُ فَبَارُوا

فهو يعدُّهم خارجين على الدين مارقين منه لثورتهم على حفصَظسته وحسرسسته ،  
كما يعدُّهم طاغين باغين كما بَغَتَتْ تَمُودُ وطغت ، فأذاقها الله عاقبة طغيانها جزاء  
وفاقاً . وقرأ في ديوان جرير ما استطعت فإنك ستجد دائماً هذه الصورة في مديح  
بني أمية تُكسِّرُ ألوانها وأصباغها سواء في عبد الملك وأبنائه أو في عمر بن عبد العزيز ،  
وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

أَنْتَ الْمَبَارِكُ وَالْمَهْدِيُّ سَيْرَتُهُ ۖ تَعَصَى الْهَوَى وَتَقُومُ اللَّيْلَ بِالسُّورِ

وآخرُ خليفة اتصل به جرير هو هشام بن عبد الملك ، وعنده نجد نفس  
الصورة ، ونفس الصفات السامية ، من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

إِلَى الْمَهْدِيِّ نَفَزَعُ إِنْ فَرَزْنَا ۖ وَنَسْتَسْتَقِي بِغُرَّتِهِ الْغَمَامَا  
وَحَبْلُ اللَّهِ تَعَصِمُكُمْ قُوَاهُ ۖ فَلَا نَخْشَى لِعُرْوَتِهِ انْقِصَامَا  
رَضِينَا بِالْخَلِيفَةِ حِينَ كُنَّا ۖ لَهُ تَبَعًا وَكَانَ لَنَا إِمَامَا  
تَبَاثُرَ الْبِلَادُ لَكُمْ بِحُكْمِ ۖ أَقَامَ لَنَا الْفَرَائِضَ وَاسْتَقَامَا

فهشام هو المهدي الذي يفزع إليه الناس ، وقد أقامه الله عليهم ووكل له  
شؤونهم ، وهي وكالة قديمة بين الله جل وعز وآبائه ، فحبُّبُ اللَّهِ تَعَصِمُكُمْ قُوَاهُ ،  
فلا يُخْشَى انْتِقَاضَهُ وَلَا انْتِكَائَهُ . وهذا الإمام الحديد هشام يطبق في حكمه حدود  
الشريعة الإسلامية ، وينشر العدل في ربوع بلاده .

وفي كل مكان من شعر جرير نجد هذا الصوت في مديح خلفاء بني أمية ،  
بل في مديح أبنائهم أيضاً على نحو ما رأينا في مديحه لأيوب بن سليمان . وفي ديوانه  
قصيدة في مديح معاوية بن هشام ، وهو يلهج فيها بنفس الأفكار والآراء ، وقد

(٣) الديوان ص ٥٥٥ .

(١) الديوان ص ٢١٩ .

(٢) الديوان ص ٢٧٥ .

تعرض فيها لثائر ثار على هشام ، قتله يوسف بن عمر الثَّقَفِيُّ وبدد جموعه وهو  
وال على اليمن . وذهب جرير بصور ذلك وكيف أن من يعصى الخليفة يتبع  
سبيل الضلال ، ويذيقه الله ومن معه نكال عمله يجنود لا يراهم الناس ، يقاتلون  
مع جند الخليفة ، وهم ملائكته الذين يسبحون بحمده ، ونراه يقول في القصيدة (١) :

إنا حميدنا الذي يشقى خليفته  
من كل مبتدع في الدين صدّاد

وهكذا خصوم بني أمية دائماً أهل بدع وضلال في الدين ، أما بنو أمية  
وأتباعهم فهم أهل الهدى والسيرة القويمة ، لهم رضوان ربهم في الدنيا والآخرة .  
وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن أن جريراً كان متشيعاً لبني أمية على نحو ما  
كان يتشيع كُشَيْرُ لابن الحنفية والكُمَيْت لزيد بن علي بن الحسين ، فهو شاعر  
الدولة ، والدولة عنده نحلة لا تقل عن نحلة الشيعة وما يشبهها . ومن هنا ذهب بمجد  
بني أمية تمجيد صاحب النحلة الذي يدافع عن عقيدة لاعن فكرة طارئة ، وهي عقيدة  
كما رأينا تقوم على أن الله فضّلهم وخصّهم بالكرامة ، إذ اصطفاهم خلفاء على الأمة  
الإسلامية وثبّتهم بكتابه وقضائه ، وقد التزموا فرائضه وسنة رسوله ، فهم الأئمة  
الهادون المهديون الذين يجب على المسلمين طاعتهم ، ومن عصاهم أو خرج عليهم  
يُعدّ مبتدعاً في الدين يصد عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان .

وفي رأينا أن هذه الصورة التي شُيِّبَتْ خطوطها وألوانها جرير في ديوانه لخلفاء  
بني أمية ينبغي أن ينظر فيها المؤرخون حين يؤرخون لهم ، وخاصة أن تاريخهم  
كُتِبَ في العصر العباسي ، ودخل فيه تعصب شديد عليهم .

وشعر جرير من هذه الناحية يعد وثيقة تاريخية طريفة لمعرفة حقيقة هؤلاء  
الخلفاء ومدى ما يلصقه به خصومهم من نقد وتجريح . وينبغي أيضاً أن يحذر  
المؤرخ هذه الوثيقة الأموية لأن الشعر بُنِيَ على المبالغة ، ولكن على كل حال  
وجود هذه الوثيقة أو الوثائق بين يديه تجعله يسير في بحثه على هُدًى . فن كلام  
الأنصار والخصوم يستطيع أن يكتشف الحقيقة .

ونرى من ذلك كله أن جريراً كان شاعراً أمويّاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ،

فهو صحيفتهم التي يذيعون فيها دعوتهم ، من إيمان بالقضاء النافذ ، ومن اصطقاء الله لهم ، ومن علمهم وسيرهم على المحجّة والطريق الواضحة . وهو أيضاً لسان حالهم في كل ما ينتون من أمر ويصممون من عزم . وظل هذا دأبه حتى توفى ، وكانت وفاته بعد الفرزدق بستة أشهر .

وكان إلى ذلك يمدح ولاية العراق العامين والخاصين من مثل أصحاب الشرطة والقائمين على الخراج . وفي ديوانه مدائح كثيرة لعبد العزيز بن مروان وربما كان قد زاره في مصر ، وفيه أيضاً مديح كثير للمهاجر بن عبد الله وإلى الإمامة ، وله يقول<sup>(١)</sup> :

لقد بعثت المهاجر أهل عدلٍ      بعهدٍ تطمئن به القلوبُ

فهو يضمّن مديح الولاية مديح سادتهم من بني أمية الذين استخلفوهم على الأمة . وقد نوع كثيراً في مدائحهم ، تارة يمدحهم بسيرتهم العادلة أو بكرمهم الفياض ، وتارة يمدحهم بشجاعتهم وحسن قيادتهم للجيش وتأمينهم للطرق من اللصوص .

وشعر جرير من هذه الناحية خصب ، فهو يقتدر على مديح الولاية ومن يتصل بهم من القواد ، كما يقتدر على مديح الخلفاء والأمراء . ولا ترتاب في أن كثيراً من المعاني التي مدح بها عبد الملك وأبناءه وعمر بن عبد العزيز والحجاج وأقرانه أصبحت كأنها نجوم قطبية ثابتة في تاريخ قصيدة المديح العربية . إذ استغلها من بعده شعراء العصر العباسي من مثل بشّار وأبي نُوّاس والبُحترى وأبي تمام .

ولعل في هذا كله ما يلفتنا إلى أن الحديد في قصيدة المديح الإسلامية لم ينتظر إلى العصر العباسي حتى يوجد ، بل أخذ يوجد منذ هذا العصر الأموي عند جرير وأمثاله ، ممن ضمّنوا قصيدة المديح معاني إسلامية جديدة لم يكن يفكر فيها شاعر العصر الجاهلي ، لسبب بسيط ، وهو أنه كان وثنيّاً ، ولم يكن هناك دولة ، ولا خلافة ولا إمامة ، ولا كتاب ، ولا سنة ، ولا نخلة شيعية ، أو أموية .

## تحول الهجاء عند الأنخطل والفرزدق وجريير إلى نقائص

تحدثنا في الفصل السابق عن اندلاع نار العصبية بين القبائل في عصر بني أمية ، وأشرنا إلى أن الهجاء سَعَرَ الشعراء والقبائل ، حتى ليوشك قارئ الشعر الأموي أن يظن أنه كان أهم موضوع يجذب إليه الشعراء وخاصة في العراق ، حيث تكتلت القبائل في البصرة والكوفة ، وتقابلت القبائل اليمانية مع القبائل المضارية . ونظرت كل قبيلة في نفسها وفيما كان بينها وبين غيرها قديماً من أيام وحروب ، واستحال ذلك كله شعراً ، أو بعبارة أخرى استحال هجاء ، فكل شاعر لقبيلة يحاول جاهداً أن يرمي القبيلة القديمة ، التي تصادف أن نافست قبيلته في الجاهلية ، بسهم من سهام الهجاء ، أو قل بحجر من حجارة القذف . ويستشيط شاعر القبيلة المعادية غضباً ، فزاه يبحث هو الآخر عن سهم مُصمٍ أو حجر مُدمٍ ، ليرد كَيْد صاحبه في نحره أو في رأسه .

والهجاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية . وقد أوجدته المنافسات القبليّة على مياه الغدران والمراعي ، كما أوجدته الحروب المستمرة بين القبائل وبطونها وغصونها ، فكانوا يقتتلون ، وكانوا يتهاجون هجاء مرّاً . ولما جاء الإسلام ، وحاربت المدينة تحت لواء الرسول مكة ، تقاذف حسّان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رَوَاحَة مع عبد الله بن الزبَعْرَى وأبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وضرار بن الخطاب قصائد هجاء ، نظموها في ظلال الأيام والحروب التي نشبت بين البلدين مثل يوم بدر ويوم أحد وغزوة الخندق . وفي هذا كله ، سواء في العصر الجاهلي أو في أيام الرسول ، كان الهجاء فنّاً غير معقّد ، إذ كان يقف الشاعر عند أفكار عامة من الجبن والقعود عن الثأر والبخل ونحو ذلك ، وقد أضاف شعراء الرسول وخاصة عبد الله بن رَوَاحَة الحديث عن الإيمان والكفر ، وكذلك صنع أحياناً حسّان بن ثابت . ونحن نلاحظ في كل هذه الصور من الهجاء التي سبقت عصر بني أمية أنها

كانت في أكثرها صوراً بسيطة ، فالشعراء لا يتقيدون دائماً بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الألحان والنغمات التي صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاءهم .

ثم هم لا يُقبلون على ذلك إقبال المحترف الذي يتَهَبُ حياته لمهنةٍ يُمارِسُها ، وإنما هم يقبلون على ذلك من حين إلى حين ، وفي الفترة بعد الفترة ، يعبرون عن رغبات قَبَلِيَّةٍ ، أو رغبات لجماعة ، ولكنها رغبات مُتَمَيِّدَة بحروب وأيام . وقد نجد هجاءً فردياً لا يتقيد بأيام ولا بحروب ، ولكن هذا لا يهمنا ، إنما يهمنا الهجاء المتبادل الذي كان يأخذ شكل حَرْبٍ لسانية بين القبائل بجانب الحرب الحقيقية .

فهذا الهجاء المتبادل لم ينظَّم ولم تُعطِ الحياةُ الفرصةَ لتنظيمه ، إذ كانت القبائل متباعدة ، وخاصةً هذه التي تتقاتل ، وكان الشعراء لذلك لا تنتظم بينهم هذه الحرب اللسانية . ومن هنا كنا لا نعرُّ بهذا اللون من الشعر إلا قليلاً ، وعقب الأيام والحروب فوراً كلَّ يوم وكل حرب نجد قطعاً متبادلة بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم تُزَمَّ الألسنة كما تُزَمُّ السيوف ، وكأن شيئاً لم يحدث ، فقد هدأت ربح الحرب ، وهدأت معها العواصف اللسانية .

ومعنى ذلك أن العرب قبل عصر بني أمية لم يعرفوا هجاءً منظماً ، يستمر يومياً استمراراً متصلاً ، على نحو ما يستمر في عصرنا لإخراج الصحف اليومية ، إنما عرفوا هجاءً متقطعاً ، يظهر من حين إلى حين ، تبعاً لنشوب حروب وأيام بينهم . فلما جاء العصر الأموي واستقرت القبائل في مدينتي البصرة والكوفة وعادت العصبية جنداً عتياً رأينا هذه القبائل تجتمع وتحتشد في الميربند وفي الكُنَاسَة حول الشعراء ، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء ، وكأنهم وجدوا في ذلك لهُمُ وَتَسْلِيَةً .

حينئذ يتحول فن الهجاء من فنٍ وقفي متقطع إلى فنٍ دائمٍ مستمر ، فالقبائل مصفوفة في البلدين ، والشعراء متراصون في الميربند والكُنَاسَة ، والناس يتحلّقون حولهم لاستماع ما يأتون به ، بعضهم من قبائلهم ، وبعضهم من قبائل أخرى ، جاءوا للفُرْجَة والتسلية وقطع الفراغ الهائل الذي لم يكن يعرفه العربي في الجاهلية

إلا قليلا ، إذ كان مشغولا بالبحث عما يُقِيم به أوده . أما اليوم فقد كَفَفَتْهُ  
الفتوح والغزوات ودواوين الحكومة والدولة مثونة ذلك ، فذهب يبحث عن شيء  
يلهو به ، ويقطع أوقات فراغه ، وقام له شعراء البلدتين بما ابتغى ، إذ حوَّلا  
المربد والكُنَاسَة إلى ما يُشْبِه مَسْرَحِينَ كبيرين ، يظهر عليهما يومياً شعراء  
مختلفون يلعبون لعبة الهجاء اللطيفة التي كانت تروى العرب في جاهليتهم قديماً ،  
ولا تزال تروى عنهم حديثاً .

وفي العادة كان الجمهور يتحرك من شاعر إلى شاعر ، وخاصة حين يحاول  
شاعر أن يرد على مارتى به شاعر قبيلته ، فيشتد الحماس عند القبيلة وعند الجمهور  
المحتشد ، ويشتد الصفير والتصفيق ، ويتجمع الناس من كل مكان ، لينظروا ما  
هو صانعُ بخصمه .

وأظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن الهجاء تحول تحت تأثير هذا التطور في حياة  
العرب إلى فن جديد ، وهو فن "لا نشك في أن له بذوراً قديمة ، ولكنه أصبح الآن  
شيئاً آخر . أما من حيث الغاية ، فقد أصبح يُراد به إلى اللهو لا إلى الجِدِّ كما  
كان الشأن في القديم ، وأما من حيث الصورة فقد أخذ يختلف وجوها كثيرة من  
الاختلاف إذ أصبح ينشد يومياً ، وأصبح الشعراء يحترقونه احترافاً .

وهذا أهم فرق بين الهجاء في القديم وفي الحديث أو في العصر الجاهلي والعصر  
الأموي ، فالشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهوراً ، و ليقطع له أوقات  
فراغه ، ولم يكن يهجو أمام خصومه مباشرة ، ولم يكن يحترق الهجاء على هذا  
النحو الذي نجده في عصر بني أمية .

وخَيْرٌ مثلُ بَصَوْرُ ذلك جريرٌ وصاحبه الأخطل والقرزدي ، فإن الهجاء  
تحول عندهم كما نقول الآن إلى حرفة وخاصة بين الأول والأخير ، فإنهما كانا  
يعيشان في البصرة ، وكانا يختلفان إلى المربد ، فينشدان الناس هناك أهاجيهما ،  
ويستيران في أثناء ذلك حماس الجماهير ، وما يزال كل منهما يحاول أن يبلغ من  
استثارتهما كل مبلغ .

فالغرض الأساسي من الهجاء تحول إلى الرغبة في إعجاب الجماهير من الخصوم  
وغير الخصوم . وهذا معنى ما نقوله من أن الهجاء أصبح حرفة أو مهنة ، فالشاعر

يريد به أن يتفوق على خصمه عند الجماهير المحتشدة في المربد أو في الكناسة ، ولم يعد كل همه أن يرضى قبيلته ، بل لعله لم يعد يفكر فيها ، إلا باعتبارها جزءاً في الجماهير المتجمعة من حوله .

وحتى أن الشاعر كان يتكلم باسم قبيلته ، وكان يدافع عنها ، وكانت تتحمس له ، وتحتشد حوله ، ولكنها لم تكن كل غايته من هجائه ، إنما كانت كل غايته أن ينال رضا الجمهور المجتمع في المسرح ، وأن يثبت تفوقه على خصمه ، وأنه أرسخ منه قلعياً في فن الهجاء والشعر عامة .

وأظننا نستطيع الآن أن نفهم كيف أن جريراً لم يقف في المربد دائماً للدفاع عن قومه من تميم ، إنما وقف في الغالب للدفاع عن قيس ضد الفرزدق شاعر تميم وضد الأخطل شاعر تغلب . فهذا الموقف لا يمكن حله إلا على أساس أن نظرية الهجاء القديمة أصابها تحول واسع ، فإذا بنا نجد شاعراً غير قيس يقف حياته للدفاع عن قيس ، ويؤلف مع صاحبيه ديوانين ضخمين يسميان ( نقائض جرير والأخطل ) و ( نقائض جرير والفرزدق ) .

وليس عندنا قبل هؤلاء الشعراء الثلاثة دواوين للهجاء بهذا المعنى الذي نجده عندهم ، لأن الهجاء لم يصبح فناً مستمراً يحترفه الشاعر احترافاً ، ويرصد نفسه رصداً لمسرح كبير يؤمّه يومياً ، ويؤمّه الناس ، ليستمعوا إلى ما أحدث من طرائف جديدة .

من أجل ذلك كنا نزعم أن الهجاء تحول عند الشعراء الثلاثة إلى فن جديد أو إلى لون جديد ، ولا بأس أن نسعى هذا اللون باسم النقائض ، وهو نفس الاسم الذي اختاره له القدماء . إلا أننا نرى أن نصطلح به على ما كان من هجائهم خاصة .

أما الهجاء الذي سبقهم فلا نسميه نقائض ، إلا على ضرب من التّعجّوز ، أو على أنه كان بُدوراً لهذا اللون الجديد الذي نقرؤه عند الأخطل والفرزدق وجرير . وليس هذا كل ما يلاحظ في هجائهم بالقياس إلى الهجاء القديم ، فنحن نلاحظ أيضاً أن الهجاء خرج من المعاني الأولية البسيطة إلى معانٍ معقّدة عمّقتها الظروف السياسية المعاصرة ، كما عمّقتها الظروف العقلية والدينية الجديدة ، بحيث أصبحت

النقائض وكأنها مناظرات أدبية طريفة .

ويمكن ملاحظة هذا التطور في نقائض جرير الأولى مع غَسَّان والبَعِيث . فهي في أكثرها أراجيز ومقطوعات ، ثم هي ضحلة المعاني ، فليس فيها عمق ، وليس فيها تعقيد ، وليس فيها الأيام الكثيرة التي نجدها فيما بعد عند جرير ، وليس فيها اتصال بطروف الحياة السياسية الجليدة ، ولا بالظروف الدينية والعقلية ، إنما فيها القُرْبُ والبساطة . وهي في ذلك تشبه الأهاجي القديمة . فإذا تقدمنا بعد ذلك وجدنا جريراً يسوق نقائض من طراز جديد ، فيها دفاعٌ عن قيس ، وفيها اتصال عميق بماضى القبائل العربية وأمجادها ، وفيها اتصال عميق بالظروف السياسية المعاصرة ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً فيها تعبير الشعر عن كل ما حصل عليه العرب حينئذ من ذخائر عقيلة وروحية .

ومن أجل ذلك كنا نزعم أن جريراً وصاحبيه حولوا صورة الهجاء القديمة إلى صورة جديدة ، هي صورة النقائض كما سماها لهم القدماء . وسنحاول أن نكشف عن ذلك كشفاً واضحاً فيما يلي من حديثنا .

### ٣

## نقائض جرير والأخطل

الحوادث هي التي وضعت جريراً هذا الوضع من الأخطل فإنه أخذ صَفَّ قيس ، كما أسلفنا ، في أثناء حكم الزبيريين للعراق ، فتعرض له الأخطل بهجوه ويهجو قيساً معه . ومعروف أن قيساً كانت تناصر ابن الزبير وتؤازره ضد الأمويين . ونجسم عن ذلك أن نشبت طائفة من الحروب بينها وبين أنصار بني أمية في الشام من تغلب ، وكلب وأخواتها من القبائل اليمنية هناك . وما لبثت كفة اليمنيين وتغلب أن رجحت ، فإن قيساً اندحرت في موقعة مَرَج رَاهِط .

فالظروف السياسية في هذا العصر وضعت قيساً في صفوف المعارضة من بني أمية كما وضعت تغلب في صفوف أنصارهم . ومعنى ذلك أن قيساً وتغلب كانتا

على طرفي نقيض في السياسة ، ولم يكن هذا كل ما بينهما ، فإن قيساً كانت تنزل قبل الإسلام في نجد وبادي الحجاز وتمتد شرقاً حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، وكانت تغلب تنزل في الموصل وتمتد بطونها وعشائرها من الحيرة وشواطئ الفرات إلى بادية الشام . فلما جاء الإسلام خرجت قبائل قيس للجهاد والفتح ، فنزل كثير منها في الشام وامتلدت بعض غصونها وفروعها إلى منازل تغلب في الموصل وحوّض الفُرات .

فكان بين قيس وتغلب تراحمٌ في المنازل وتضاربٌ على العيش والمكان ، ومعنى ذلك أنهما كانتا على طرفي نقيض في مصالحهما الاقتصادية كما كانتا على طرفي نقيض في مصالحهما السياسية ، وهذا الجانب الاقتصادي هو الذي جعل تغلب تنتهز الفرصة في موقعة مَرَج رَاهِط ، وتنضم إلى القبائل البمنية ضد قيس ، حتى تُخْرِجَهَا من بلادها إذا دارت عليها الدوائر .

ودارت الدوائر على قيس في هذه الموقعة ، وعانت من جرائها كارثة شديدة ، لم تتعوّدها من قبل ، وقد رجعت إلى نفسها ، فرأت أن تُنظّم غارات ومواقع للانتقام من تغلب وموقفها في موقعة مرج راهط ، فتجمعت جماهيرها في الموصل تحت قيادة زعيمها زُفَر بن الحارث الكلابي وإمرة عُمَيْر بن الحُباب السَّامِي ، وأخذت تُغَيِّر على كَلْب من جهة وتَغْلِب من جهة ثانية . وصلَّيت تغلب نيران هذه الغارات التي كان ينظمها عُمَيْر ، فتارة يهجم عليها في الخابور ، وتارة بجانب الرثار . وقد أفاض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري في الحديث عن هذه الغارات وأيامها ، من مثل يوم الحَشَّاشِ ، ويوم البِشْرِ ، كما أفاض في الأشعار التي نُظِمَّت فيها .

وعلى نحو ما استلَّ رجال قيس وتغلب السيوف في هذه المعارك الحربية استلَّ شعراؤهما قصائد الهجاء في معارك لسانية ، فكان الأخطل وغيره من شعراء تغلب ينظمون أهاجي مقذعة في قيس ، وكان شعراء قيس يردون عليهم بأشعار يرمون بها في نحورهم . وكان في العراق شاعرٌ ناصرٌ قيساً بحكم لُعبَةِ النقائض الجديدة ، ولم يكن قيسياً ، وإنما كان تميمياً ، وهو جرير ، فكان طبيعياً أن يصطدم الأخطل شاعر تغلب به ، وإن كان الرواة يعللون ذلك بعلم شخصية ، فابن سلام يروى

أنه « لما بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدري إلى العراق حتى تسمع منهما ، وتأتيني بخبرهما ، فليقيهما ، فاستمع ، ثم أتى أباه ، فقال : جرير يغترِف من بحر ، والفرزدق ينسَحَت من صَخْر ، فقال الأخطل : فجرير أشعرهما ، ثم قال :

إِنِّي قَضَيْتُ قِضَاءَ غَيْرِ ذِي جَنَفٍ لَمَّا سَمِعْتُ وَلَمَّا جَاعَنِي الْخَبْرُ  
أَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ وَعَضَهُ حَيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ذَكَرُ

ثم قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان فبعث إليه محمد بن عُمَيْر بن عَطَّارِد (وكان صهراً للفرزدق) بدراهم وحُمْلَان وكُسُوءة وخمر ، ويقال إن الذي بعث إليه بهذا شَبَّهَ بن عِقَال المجاشعي ، وقال للأخطل : فَصَّلْ شَاعِرْنَا عَلَيْهِ وَسُبَّهُ ، فقال الأخطل :

اِحْسَانًا إِلَيْكَ كَلِيبُ إِنِّ مَجَاشِعًا  
وَأَبَا الْفَوَارِسِ نَهَشَلًا أَحْسَانُ  
قَوْمٌ إِذَا خَطَرَتْ عَلَيْكَ قُرُومُهُمْ  
جَعَلُوكَ بَيْنَ كَلَاكِلِ وَجِرَّانٍ (١)  
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ  
رَجَعَتْ حُجُومًا وَسَالَّ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ

فقال جرير :

يَاذَا الْعَبَّاسِيَّةِ إِنِّ بِشْرًا قَدْ قَضَيْتُ  
أَنْ لَا تَجُوزَ حُكُومَةُ النَّشْوَانِ (٢)

ويروي ابن سلام في موضع آخر « أن الفرزدق والأخطل وجريراً اجتمعوا عند بشر بن مروان ، وكان يُغَرِّى بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير ، فقال : أعفني أيها الأمير ، فقال : احكم بينهما ، فاستغنى بجهده ، فأبى إلا أن يقول ، فقال : هذا حكم مشوم ، الفرزدق ينسَحَت من صخر وجرير يغترِف من بحر . فلم يَرْضَ بذلك جرير ، وكان سبب المهجاء بينهما ، فقال جرير :

ص ١٠٧ وانظر نقائص جرير والفرزدق  
ص ٨٧١ وما بعدها .

(١) القروم : الفحول . الكلاكل : الصلور : الجران : صفحة العنق .  
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام (طبع أوروبا)

ياذا العباية إن بشرأ قد قضى  
فدعوا الحكومة لستم من أهلها  
أن لاتجوزَ حكومةُ النشوان  
إن الحكومةَ في بنى شيانِ  
ثم استطارا في الهجاء (١).

والروايتان جميعاً تعودان بنشوب معارك الهجاء أو مناظرات الهجاء بين الأخطل وجرير إلى هذا الحكم الذى حكم به الأخطل على جرير منحاذاً إلى الفرزدق بمحضرة بشر بن مروان أوفى أثناء زيارته له . غير أننا نزعم أن هذه النقائض إنما استطارت بين الشاعرين بحكم موقف جرير فى صف قيس . وقد تكون حادثة بشر صحيحة ، ولكن ينبغى أن لا نجعلها كل الأسباب فى اندفاع الشاعرين إلى التهاجى ، فوراها سبب أعمق فى موقف الشاعرين لهذا العصر من الخصومات القبلية ، إذ كان الأخطل لسان قومه تغلب ، بينما اتخذت قيس فى المريرد جريراً لسانها ، فكان من الضروري أن يصطدم اللسانان المعبران عن الطرفين ، سواء هاج ذلك بشر فى نفس الأخطل أو لم يهجه . وإن نفس وقوف بشر مع الفرزدق ضد جرير ، إنما يرجع إلى موقف جرير مع الزبيرين ومع القيسيين خصوم بنى أمية . ومهما يكن فقد اصطدم شاعر تغلب بشاعر قيس فلخلا فى هذه المعارك التى أنتجت لنا هذه النقائض الطريفة بين الأخطل التغلبى المسيحى وبين جرير القيسى الهوى المسلم .

وإذا أخذنا ننظر إلى هذه النقائض التى بقيت بين أيدينا من عمل الشاعرين والى جمعها أبو تمام لاحظنا تواءماً أنها قصائد ضخمة ، استنفدت جهداً غير قليل من الشاعرين ، وهى من حيث الشكل تتألف من قصيدتين قصيدتين ، فالوحدة فى ديوان النقائض سواء بين الأخطل وجرير أو بين الفرزدق وجرير قصيدتان . وفى العادة ينظم أحد الشاعرين المتناقضين قصيدة من وزن خاص وقافية خاصة ، ثم يأتى زميله فينقض القصيدة بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية ، وكأنه يريد أن يثبت تفوقه عليه من حيث الموسيقى والصياغة الفنية بجانب تفوقه عليه من حيث الفخر والهجاء . وزراه فى أثناء صنعه لنقيضته يتعرض لمعانى زميله فيردها أو يرد عليها معنى معنى ، يحاول أن ينقضها ، وأن يجعلها أنكاشاً من بعد قوة .

وليس هذا كل ما يلاحظ على فن النقيضة لهذا العصر ، فنحن نلاحظ أيضاً أن الشاعر في النقيضة لا يعبر قبل كل شيء عن نفسه كما في بعض القصائد القديمة ( انظر المعلقات مثلاً ) وإنما يعبر عن قبيلة يتحدث باسمها ، يذكر مفاخرها وأجادها ثم يعدّ مساوئ خصومها ومثالبهم .

وأيضاً فإننا نلاحظ أن القبيلة كانت تتخذ شاعراً يعبر عنها ، وليس من الضروري أن يكون منها كما هو شأن جرير بالقياس إلى قيس ، ولذلك كنا نزعم أن نقائض جرير والأخطل فن جديد لم يسبق إليه الشعراء في الجاهلية ، إذ كان كل شاعر يتحدث باسم قبيلته ، أما في هذا العصر فإن الشاعر قد يتحدث باسم قبيلة أخرى ، ولا مانع مطلقاً من أن يضطره ذلك إلى أن يقف ضد قومه وقبيلته نفسها كما حدث بين جرير والفرزدق مما سنعرض له فيما بعد . وبذلك يصبح الشاعر وكأنه صحيفة مؤجّرة لهذه القبيلة

ويشعر كل من يستعرض الحركات الدينية والعقلية وما كان من مناظرات بين العلماء في هذا العصر أن النقائض ، سواء نقائض جرير والأخطل أو نقائض جرير والفرزدق ، إنما كانت قبل كل شيء صدّى لهذه المناظرات التي مَسَّت كل جانب في الحياة الدينية والعقلية ، على نحو ما تحدثنا عن ذلك في غير هذا الموضع .

وكان جريراً حينما انساق في مناظراته مع الأخطل أو مع الفرزدق إنما كان يقلد هؤلاء العلماء حين يأخذ واحد منهم في الدفاع عن فكرة معينة كفكرة الجبر أو القدر أو الإرجاء ، وكفكرة التشيع أو الأموية أو الزبيرية ، وكهذه المناقشات التي لا تنتهي في مسائل الفقه والتشريع ، مما كان يراه جرير كل يوم في المسجد الجامع بالبصرة ، وفي المربد وفي الطرقات ، وفي مجالس الناس . ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم كيف أن جريراً التميمي كان يأخذ صف قيس المخاصمة لقبيلته ، وكيف كان يعيش للنضال عنها ، فقد تحوالت المسألة عنده إلى فكرة أو ما يشبه العقيدة ، أو قل إنه كان يُسلي نفسه وإلحمهور من حوله بهذه المحاور .

فالحوّ الذي ألفت فيه نقائض جرير والأخطل وكذلك نقائض جرير والفرزدق كان جواً جديداً فيه مناظرات العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم ، وفيه هذا الوضع غير المألوف ، وهو أن شاعراً عربياً يدافع عن قبيلة أخرى غير قبيلته ، ثم فيه هذا

المسرح الكبير مسرح الميربند الذى يتجمع فيه سكان البصرة للفرجة على لُعبة النقائض . وحقاً وُجدت أهاج بين الشعراء فى العصر الجاهلى وفى أوائل الإسلام ولكنها لم تُؤلف فى هذا الجوّ العلى الجديد ، ولم يكن الشاعر يأخذ فيها صنفاً آخر غير قبيلته . ومن هنا كنا نَقْصِل هذه الأهاجى الجديدة باسمها الذى وضعه الرواة لها وهو اسم النقائض ، ونزعم أن هذه النقائض جديدة فى تاريخ الشعر العربى فقد تحول الهجاء القديم إلى مناظرات من نوع يوشك أن يتعمّد، وأن يختلف فى كثير من جوانبه عن صورته القديمة، بل قل إنه تعمّد، واختلف فعلاً، واتخذ صورة مغايرة . والواقع أنه تكونت فى العقل العربى فى أثناء هذا العصر الأموى قشرة من الثقافة أتاحت له أن يتفوق ضرورياً من التفوق فى كل فن عالجه من فنون الشعر ، فهذا الهجاء القديم استطاع هذا العصر أن يمدنا فيه بديوانين جديدين لالعهد للعربية بهما . وأول ما نلاحظ فى ديوان جرير والأخطل أن النقائض تطول طولاً شديداً ، فليست أهاجيهما مقطوعات ، وليست قصائد قصيرة كأكثر الأهاجى القديمة ، وإنما هى قصائد طويلة ، وكثيراً ما تُسرف فى الطول .

وهو طول سعى به الشاعران إلى غاية يريدان فيها أن يلاتما بين هذا الفن وما أصاب العقل العربى من تطور ونهوض . فلم تعد المسألة مسألة هجاء عاجل ، بل أصبحت مسألة هجاء معتمّد ، يقوم على البحث والدرس فى تاريخ القبائل . وارجع إلى أى تقيضتين لجرير والأخطل فستراهما يحاولان بكل ما يستطيعان أن يتتقفا بتاريخ قيس وتغلب ، وأن يتعرفا إلى كل ما لهما من أمجاد فى الجاهلية أو نقائض ومثالب . فهذا الأخطل يُلمُّ بتاريخ تغلب وقومه وحروبها القديمة مع القبائل الأخرى وخاصة ما اتصل بقيس ، حتى يتعمّر قناتها الغمز الذى يريده فى الهجاء . وهذا جرير يلم بتاريخ قيس التى يدافع عنها وبحروبها فى الجاهلية ، وخاصة ما اتصل بتغلب ، حتى يُسدّد إلى الأخطل ما يريد من سهام الهجاء . وفى أثناء ذلك يُعدّد كل منهما تاريخ القبيلة التى يتحدث باسمها ، ومفاخرها عامة ، وما كان لها من انتصارات فى الجاهلية على القبائل الأخرى . ويضيف الأخطل إلى ذلك درساً آخر لقبيلة جرير : كُليْسب ، ومثالبها ، حتى يرى جريراً بكل ما يريد من حجارة القذف .

وكل هذه موضوعات واسعة للبحث والدرس ، فجرير والأخطل كل منهما كان يدرس تاريخ هذه القبائل التي يتحدثان عنها ويتناظران أو يتحاوران فيها ، ليحيطا علمًا بكل ما يتصل بها ، وليستطيعا الهجومَ عليها إن كانا هاجمين ، والدفاع إن كانا مدافعين .

وهذه ظاهرة مهمة في النقائض ، فهي قصائد تحتاج ثقافة واسعة بتاريخ القبائل العربية في الجاهلية . هي هجاء من ناحية ، وهي تاريخ من ناحية ثانية ، والشاعر يتقف نفسه أعمقَ ما يكون التثقف بهذا التاريخ . ومن هنا كانت نقائض جرير والأخطل من أهم المراجع لمن يريدون درّسَ تغليبَ وقيسَ ومن اتصل بهما من القبائل ، فهي وثائق تاريخية ، وقيمتها من هذه الناحية بعيدة الخطر .

ويتصل بهذه الظاهرة التاريخية في النقائض بين جرير والأخطل ظاهرة أخرى يمكن أن نسميها ظاهرة سياسية ، إذ نجد كل منهما حين يهجو خصمه يلاحظ السياسة القائمة في الدولة العربية ، وما يتصل بها من ظروف طارئة لم تكن معروفة في القديم ، لسبب بسيط ، وهو أن الدولة العربية لم تكن قامت ولا عرفت .

ومعنى ذلك أن كلا منهما كان يحاول أن يلائم في نقيضته بين هذا التاريخ الذى يرويه عن القبائل في الجاهلية وبين الظروف السياسية الحديثة ، فالأخطل حين يهجو قيسًا يفكر في موقفها من الأمويين ويسجّرهُ ذلك سجراً إلى أن يجعل نقيضته في أكثر الأحيان شريكةً بين تغلب وعبد الملك من جهة ، وبين قيس خصوم تغلب وعبد الملك من جهة ثانية ، ومن هنا يدخل في النقيضة قسم خاص بمدح الخليفة .

وبهذه الطريقة أصبحت النقيضة لا تحوى فخراً وهجاءً فحسب كما كان الشأن في القديم ، بل أخذت في بعض قصائدها على الأهل تحوى مدحاً وسياسةً عصرية . ويقدم الشاعر لذلك كله ببكاء الأطلال ووصف رحلته في الصحراء ، وقد يضيف الأخطل نعتاً للخمر ، وبذلك تشمل بعض نقائضه على جُلّ فنون الشعر التي عرفت حينئذ .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا عدّ جرير والأخطل شاعرين كبيرين في هذا العصر ، فقد نهضا بهذا الفن الجديد ، وكان فنّاً صعباً ، إذ كان معقداً هذا التعقيد . لم يعد الهجاء بيتين أو أبياتاً قليلة تُسببُ بها قبيلة أخرى ، بل أصبح

قصائد طويلة تعتمد في طولها على دَرَسٍ عميق للحياة الجاهلية وما كان بين القبائل العربية فيها من خصوصيات ، كما تعتمد على درس الحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف سياسية . وكل ذلك يُتناول تناول المتناظرين في المسائل العلمية ، فكلُّ يحاول أن يقدم حججه وأدلته من التاريخ مستلهماً الحياة السياسية في عصره . وكان الأخطل المسيحي حين يمدح عبد الملك خليفة المسلمين يلاحظ هذه الخلافة في الناس ويَبْثُ في حديثه عنه - كما أسلفنا - اصطفاء الله له واختياره لإمامة الأمة . على أن الجانب المسيحي فيه جعل جريراً يهجو كثيراً بمسيحيته ، وما يؤديه قومه من صدقة ، أو كما يسميها جرير ، جزية . وإنه ليندد دائماً بملتهم ، ويتهمهم على صلبانهم وقد يسهم مار سرجيس ، كما يتهمهم على طعامهم وما يأكلون من خنازير ، وما يتناولون من خمر ، وهذا كله مبثوث في هجائه له من مثل قوله (١) :

أببالصليبِ ومارِ سرجيسَ تَتَّقِي      شهباءَ ذاتِ كتابٍ جُمهُوراً  
وقوله (٢) :

إِنَّ النّبوةَ والخِلافةَ والهُدى  
خالقتمُ سبيلَ النّبوةِ فاحضعوا  
رَغَمٌ لَتَغْلِبَ في الحياة طَوِيلُ  
بِجِزَا الخليفةِ واللذيلُ ذليلُ

وقوله (٣) :

رِجْسٌ يَكُونُ إِذَا صَلَّوْا أَذَانُهُمْ  
والمُفْرِعونَ على الخِزيرِ مَيَسِرَهُمْ  
قَرَعُ النواقيسِ لا يَدْرُنَ مالِ السُّورِ  
بِئْسَ الجِزورُ وبئسَ القومُ إِذْ يَسْرُوا  
جاءَ الرسولُ بدينِ الحقِّ فانتكثوا  
وهل يَضِيرُ رسولَ الله أَنْ كَفَرُوا

وعلى هذه الشاكلة كان يهجو دائماً بدينه وبما تؤدي تغلب من صدقة ، أو كما يقول جزية (٤) ، وقد أكثر من تعبيره بأنه وقومه من رعاة الخنزير وأنهم لا يقامرون على الإبل كما تقامر العرب ، وإنما يقامرون على الخنازير وفي أثناء ذلك يكثر من هجائهم بشرب الخمر .

(٤) لاشك أن تعبير تغلب بالجزية فيمبالغة ، فقد مر في أول هذا الفصل أن عمر رضي أن تؤدي تغلب الصدقة التي يؤديها العرب من المسلمين ، لا الجزية التي كان يؤديها الأجانب .

(١) نقائض جرير والأخطل (طبع الآباء اليسوعيين) ص ١٢٥ .  
(٢) النقائض ص ١٨٤ وما بعدها .  
(٣) النقائض ص ١٧٢ وما بعدها .

وهكذا كانت النقيضة تتألف من عناصر قديمة تتصل بهذا الحس التاريخي بكل ما للعرب في جاهليتهم من حروب ومآثر ، كما تتألف من عناصر جديدة تتصل بهذا الحس الحاضر بكل ما يتصل بالدولة الحديثة من ظروف سياسية أو دينية . وكان الشاعر ما يزال يصدر عن هذين الحسَّين . حتى يثبت تفوقه ، وأنه السابق المُجَلِّي في المناظرة .

ولم يحتكم الأخطل وجرير إلى ذلك فحسب ، بل احتكما أيضاً إلى الإقذاع في الهجاء ومحاولة السخرية وإضحاك الجماهير ، حتى يسقط كل منهما قبيلة صاحبه سقوطاً لا تقوم من بعده بما يليها من الخزيم والعار . واعتدلاً في هذا العمل بنقض الصفات التي يبجلها العرب من كرم ووفاء وغيرهما . ولكل منهما أبيات طارت شهرتها في العالم العربي ، فن ذلك قول الأخطل في إحدى نقائضه<sup>(١)</sup> :  
 قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم  
 قالوا لأمتهم بول على النار  
 وواضح أن الأخطل لم يكتف في هذا البيت بوصف كلاب باللؤم والدناءة وابتذال الناس . بل جعل نارهم أيضاً حقيرة ضئيلة تطفئها الكمية القليلة من الماء . وفي هذا سخرية بالغة ، وهي سخرية استحدثها جرير والأخطل . والفرزدق من ورائهما ، في هذا الفن الإسلامي : فن النقائض .

وكان جرير هو الآخر يحاول أن يلبس الأخطل وقومه أقبح الهجاء وأشدّه لدعاً وتهكماً ، فعمد دائماً أن يهجو نساء تغلب وأن يهتك أعراضهن وأن يرميهن بأنواع الفحش ، فإذا عدل عن ذلك فإلى دين تغلب ومسيحياتها ، وكذلك إلى أخلاقها ونحصالها من مثل بيته المشهور :

والتغلي إذا تنحنح للقرى  
 حك استه وتمثل الأمثالا

وهي صورة قبيحة كصورة الأخطل السابقة ، ولكنها مضحكة . وتحمل كل ما أراد من سخرية بصاحبه وبقبيلته . وما من شك في أن مثل هذا البيت وبيت الأخطل السابق إنما كان يراد به إلى التهليل واستثارة الجماهير وكسب إعجابها وتصفيقها مع الشاعر وأنصاره من القبيلة التي يتحدث باسمها .

وأظن أنه قد اتضحت الآن المواد التي تألفت منها نقائض جرير والأخطل ، فهي تتألف من مفاخر قديمة وعلى رأسها الأيام ، كما تتألف من مثالب قديمة وعلى رأسها الأيام أيضاً . وهي بجانب ذلك تتألف من موادٍ حديثة تتصل بالظروف السياسية وبعناصر الإسلام . وهذا كله يُمزج بسخرية لاذعة بالقبيلة ، وهي سخرية تمس أخلاقها وخصالها . ومن هنا تنوعت النقيضة وتنوعت معانيها . وكان الشاعر يقبل على نقيضة خصمه وكأنه يقبل على مناظرة ، فهو ينظر في كل أدلتها ، ويسوق أمامها ما ينقضها نقضاً ، ويهدمها هدماً . ويشعر الإنسان شعوراً واضحاً حين يقرأ في نقائض الأخطل وجرير أن كلا منهما كان يقرأ قصيدة خصمه متأنياً متمهلاً ، متميناً كل معنى على حدة ، ثم ينظم قصيدته ، وكأن كل بيت فيها يرد على بيت مقابل في القصيدة الأولى . ولا نشك في أنهما ولّدا معاني كثيرة في أثناء قيامهما بهذا العمل الفني المعقد ، وهو توليد كان ثمرة للرق العقلي الذي أحرزته الفكر العربي في عصر بني أمية .

## ٤

## نقائض جرير والفرزدق

يمتاز هذا الديوان الثاني للنقائض من الديوان السابق ديوان جرير والأخطل من وجوه كثيرة ، فقد استغرق مدة أطول في تأليفه ، إذ انتهى جرير والأخطل من صنع نقائضهما معاً بوفاة ثانيهما في عصر الوليد بن عبد الملك حول سنة ٩١ للهجرة . أما ديوان جرير والفرزدق فقد ظلا يؤكّفان فيه وفي نقائضه حتى توفياً لعهد هشام بن عبد الملك في سنة ١١٤ للهجرة . فبين الانتهاء من الديوانين نحو عشرين عاماً .

وعلى نحو ما انتهت نقائض جرير والفرزدق متأخرة على نقائض جرير والأخطل بدأت متقدمة ، فبينما بدأت الأخيرة منذ ولاية بشر بن مروان سنة ٧٣ للهجرة على العراق لأخيه عبد الملك نجد الأولى تبدأ ، كما أسلفنا ، منذ ولاية أبي خالد الحارث

ابن عبد الله بن أبي ربيعة ( القباع ) على البصرة ( ٦٥ - ٦٧ هـ ) لابن الزبير ،  
فنحن نرى جريراً وصاحبه يذكران هذا الولى فى نقائضهما الأولى ، من مثل قول  
جرير (١) :

أبا خالدٍ لا تُشْمِتِنِ أعادياً يودُّونَ لوزلَّتْ بمهلكةٍ نعلِي

وسبب هذا الاستعطاف أنه كان يتوعده على الاستمرار فى الهجاء مع الفرزدق  
لما يثيران من عصبيات القبائل ، فالرواة يروون أنهما لما تواقفا بالمربد فى ولايته  
أرسل إليهما عبّاد بن الحصين ، فهدم دارهما ، وطلبهما (٢) . وذكر ذلك فى  
ققيضتين لهما ، يقول الفرزدق فى أولهما (٣) :

أحارثُ دارى مرّتين هدّمتها وكنت ابنَ أختٍ لا تُخَافُ غوائلهُ  
ويقول جرير فى ثانيتهما (٤) :

وما فى كتاب الله هدّمُ بيوتنا كتهديمِ ماخورٍ خبيثٍ مداخيلهُ

وإذن فنقائض جرير والفرزدق تسبق من حيث الزمن نقائض جرير والأخطل  
كما تتأخر عليها من حيث الزمن أيضاً ، فقد شغلتهما نحو خمسة وأربعين عاماً ،  
بينما شغلت الأخطل وجريراً نقائضهما نحو عشرين عاماً فحسب . ومن غير شك  
أتاح هذا الدهر الطويل لنقائض جرير والفرزدق أن تكون أكثر عدداً وأكمل فناً  
وأتمّ صنْعاً .

ومن يرجع إلى ما يرويه الرواة عن نشأة نقائض جرير والفرزدق يجدون  
على أن خصومة نشبت بين جرير وشاعر يسمى غسّاناً من سَلِيط أحد غصون  
بنى يَرْبُوع ، ودخل بينهما شاعر من مجاشع قوم الفرزدق يسمى البعيث ،  
فتفوق عليه جرير ، ففزع بنو مجاشع إلى شاعرهم الكبير الفرزدق ، وكان قد  
قيّد نفسه لحفظ القرآن ، واعتزم أن يهجر الشعر ، فأظهر شيئاً من التردد ، فجاءه  
نسوة بنى مجاشع واسترته للاشتراك فى الخصومة والرد على جرير ، ومازلن به حتى

(٣) النقائض ص ٦٠٧ .

(٤) النقائض ص ٦٨٣ .

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٦٧ .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ٢٧٨/٥

والنقائض ص ٦٨٣ .

فَلَكَ وَتَأَقَهُ<sup>(١)</sup> وزحف إلى المعركة ، واستمر عالقاً بها حتى آخر لحظة من حياته . وقد يكون هذا الأصل لنشوب المعركة بين الفرزدق وجريز صحيحاً ، غير أن المعركة لم تلبث أن تطورت تحت تأثير مسرح الميربد الكبير وما كان به من جماهير تريد قطع الوقت واللهو والتسلية إلى معركة كبيرة لا في المفاضلة بين عشيرتي الشاعرين فحسب ، بل أيضاً في المفاضلة بين قيس وتميم ، فإن من يتعمق درّس النقائض ودرس حوادث العصر وأشخاصه وظروفه يلاحظ أن هذا المزج بين عشيرتي الشاعرين وبين قيس وتميم بدأ منذ بدأت هذه المعركة ، أوفى وقت قريب من نشوتها جداً ، فقد تصادف أن عبد الله بن خازم السلمي القيسي صاحب خراسان في عهد ابن الزبير أوقع بتميم سنة ٦٥ للهجرة<sup>(٢)</sup> ، فنشبت الخصومة بين قيس وتميم منذ هذا التاريخ ، وظلت تُذَكِّمُها الحوادث طوال عصر بني أمية . وكان هوى قيس مع ابن الزبير منذ نشبت موقعة مَرَجِ رَاهِطِ فِي الشَّامِ لعهد مروان بن الحكم ، وكذلك كان هوى جريز وقبيلته يَرْبُوعِ ، فقد غلب على البصرة عقب موت يزيد بن معاوية وفي أثناء الفتنة التي قامت هناك سَلَمَةَ<sup>(٣)</sup> ابن ذُؤَيْبِ الرِّيَاحِيِّ اليربوعي ، ومنه تسلمها إلى ابن الزبير . ونجد يَرْبُوعاً تحارب في صفوف مُصْعَبِ ضِدَّ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ سنة ٧٢ للهجرة كما نجد شاعرها جريزاً يَرِيّ فِي مَنْ يُقْتَلُونَ مِنْهَا حَيْثُ<sup>(٤)</sup> .

ومعنى ذلك أن الحوادث قرنت يَرْبُوعاً وشاعرها جريزاً مع قيس منذ غلب ابن الزبير على العراق ، وأيضاً فإن الحوادث وضعت الفرزدق ضد ابن الزبير والقيسين معه ، فإن قومه هم الذين قتلوا الزبير بعد موقعة الجمل ، وقد اصطدم بابن الزبير حين خاصمته زوجه النوار إليه في مكة ، كما اصطدمت تميم بقيس في خراسان . ونستطيع بذلك كله أن نفهم موقفه من قيس ، وأن نفهم في الوقت نفسه موقف جريز ، إذ أصبح شاعر عشيرته من جهة وشاعر قيس من جهة ثانية . وانضمت إلى ذلك الحاجة الجديدة إلى شاعر ينمّلان مسرح الميربد بلعبة النقائض ،

(٢) النقائض ص ١١٨ .

(٤) أنساب الأشراف ٥/٣٤٥ .

(١) النقائض ص ١٢٦ وابن سلام ص ٨٩

وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٩٣/٢ وما بعدها .

فانبريا يقودان هذه المعارك . ولما تولى بشر بن مروان على العراق أبعد جريراً عنه باعتبارها شاعر خصومه الزبيريين ومن والاهم ، وهاج الشعراء لهجائه<sup>(١)</sup> . وواضح أن السياسة هي التي جعلته يُبْعَدُهُ عنه ، وهي أيضاً التي جعلته يدعو الشعراء لهجائه ورميه بمثل ما كان يرمى به هو الأمويين في أثناء ولاية الزبيريين . وفي الوقت نفسه نجد بشراً يُقَرَّبُ قَيْسًا وشاعرها الرَّاعِي<sup>(٢)</sup> منه ، لأن أمه كانت قَيْسِيَّة<sup>(٣)</sup> ، فهو يعتبره من أخواله<sup>(٤)</sup> ، وأيضاً فإنه قَرَّبَ تميماً وشاعرها الفرزدق منه ، واتخذته نديماً له<sup>(٥)</sup> .

وأظننا الآن نستطيع أن نفهم الخصومة التي نشبت بين جرير من جهة وبين الرَّاعِي والفرزدق من جهة ثانية ، فإننا نَفاجِأُ في النقائض بموقف غريب ، يخالف منطق الظروف والحوادث ، إذ نرى جريراً يهجو الرَّاعِي النَّمِيسِيَّ القَيْسِيَّ ، ويقف الفرزدق في صف الرَّاعِي ويدافع عنه<sup>(٦)</sup> وهو موقف شاذ ، هياً له ظهورُ بِشْرٍ في العراق وتقريبه بين الرَّاعِي من جهة والفرزدق من جهة ثانية ، فتطوَّرَ الموقفُ ، بل انعكس ، ووجدنا جريراً يهجو نَمِيسِراً وشاعرها ، والفرزدق ينصرها وينصر شاعرها . وليس معنى ذلك أن جريراً انصرف عن قيس جميعها فهو إنما هجا نَمِيسِراً وحدها . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا كان حادثاً عارضاً ، لأن بشراً لم يلبث أن تُوَفِّي ، وأيضاً فإن جريراً لم ينصرف عن قيس حتى في حياة بِشْرٍ ، فإنه دخّل مدافعاً عنها مع الأخطل شاعر تَغْلِبِ ، وأخذنا ينظمان معاً نقائضهما التي سبق أن عرضناها . ولعل في هذا كله ما يدل على أن جريراً كان شاعر قَيْسٍ قبل وفود بِشْرٍ على العراق ، وإن تكن نقائضه الأولى مع الفرزدق تخلو من الإشارة إلى قَيْسٍ . على أن هذا وحده لا يكفي لتشخيص الموقف ، لأن النقائض التي بين أيدينا لهما ليست هي كل نقائضهما وإنما هي بقايا مما قالاه . وهناك نقيضة نظمها جرير في أول ولاية الحجاج على العراق سنة ٧٥ للهجرة ونراه فيها يُعَيِّرُ الفرزدق بانتكاسه ، إذ يراه يمدح الحجاج القيسي وولائه ، وفي ذلك يقول له<sup>(٧)</sup> :

- (١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٨/٨ ،  
 (٢) أغاني ٢٩٤/٨ وأنساب الأشراف ١٧٨/٥ .  
 (٣) كانت أم بشر قيسية من بني جعفر  
 (٤) أغاني ٢٩٤/٨ وأنساب الأشراف ١٦٨/٥ .  
 (٥) أنساب الأشراف ١٦٨/٥ .  
 (٦) انظر النقائض ص ٤٢٧ وما بعدها .  
 (٧) الأغاني ٢٩٤/٨ وما بعدها .  
 (٨) انظر أنساب الأشراف ١٦٤/٥ .

رَأَيْتُكَ إِذْ لَمْ يُغْنِكَ اللهُ بِالْغَيْنَى لَسَجَّاتٍ إِلَى قَيْسٍ وَخَدُّكَ ضَارِعٌ

وهذات هذه المعارك القيسية التميمية قليلاً في عهد الحجاج ، ثم عادت إلى العنف والشدة بعد وفاته ، وبعد حادث ثورة قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي وإلى خراسان على سليمان بن عبد الملك وقتل وكيع بن أبي سود التميمي له ؛ واستمرت حتى لفظا أنفاسهما الأخيرة .

على أنه ينبغي أن نفهم أن هذه المعارك بين عشيرتي الشاعرين ، ثم بين قيسٍ وتميم لم تكن معارك صارمة ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، وإنما كانت معارك يتراد بها اللهو والتسلية . وارجع إلى أخبار الشاعرين تجددهما غير متحاذين ولا متخاصمين بل متصادقين متوادين ، كما يتصادق ويتواد في عصرنا الصحفيون الذين يعملون لحساب أحزاب متعارضة . ويظهر ذلك في أنهما كانا كلما وقع أحدهما في شدة حاول صاحبه أن يخرج منه جاهداً ، فإذا طلب جرير لحرب الأزارقة توسط له الفرزدق عند المهلب ليركه (١) ، وإذا حبس الفرزدق توسط له جرير عند صاحب الشرطة في العراق (٢) ، ثم عند هشام بن عبد الملك في الشام (٣) .

فالمسألة لم تكن صراعاً صارماً كما ظن الرواة . وفي كل مكان نجد نصوصاً تشهد بأنهما كانا متعاطفين متراحمين ، لا متقاعين متنازعين ، وقد حزن جرير على صاحبه حزناً شديداً حين سبقه إلى الموت ، ورثاه بأبيات مختلفة ، منها قوله (٤) :

فُجِعْنَا بِحَمَالِ الدِّيَاتِ ابْنِ غَالِبٍ وَحَامِي تَمِيمٍ عَرَضَهَا وَالْمُرْأَجِمِ (٥)  
بِكَيْسِنَاكَ حِدْتَانِ الْفِرَاقِ وَإِنَّمَا بِكَيْسِنَاكَ شَسَجُوا لِلْأُمُورِ الْعِظَامِ  
فَلَا حَمَلَسْتُ بَعْدَ ابْنِ لَيْلَى مَهْيِرَةً وَلَا شُدَّ أَنْسَاعُ الْمَطِيِّ الرَّوَّاسِمِ (٦)

فالصلة بين الشاعرين لم تكن مُنْبَتَّةً ، بل كانت صلة مودة ، وكانا يقومان بهذه النقائص على أنها شيء يُقصدُ به إلى التسلية أكثر مما يُقصدُ به إلى السباب

(٥) المراجع : المنازل .  
(٦) المهيرة : الحرة . أنواع : جمع نع ، وهو سير تشد به الرجال . والرواسم : النوق من رسمت الناقة إذا أثرت بحوافرها في الأرض .

(١) أغاني ٢٩/١٩ .  
(٢) أغاني ٤٥٢/١٩ .  
(٣) ابن عبد ربه ١٤٥/٣ .  
(٤) الديوان ص ٥٣٥ وانظر ابن سلام ص ١٠٠ .

والتخاصم . وكان مَنْ حَوْلَهُما يعرفون ذلك ، ومن هنا تأتي استشارةُ ولايةِ العراقِ لهما بحضورتهم ، وكانهم يريدون أن يُسَلِّطُوا أنفسهم ، ويكشِفُوا بعضَ غُمَّتِها . ومن طريف ما يُروى من ذلك أن الحجاجَ قال لهما : « اثْنِيَا في لباسِ آبائكما في الجاهلية ، فجاء الفرزدق وقد لبسَ الديباجَ والخَزْرَ وَقَعَدَ في قُبَّةٍ ، وشاور جريرَ دُهَاقَةَ بنى يربوع ، فقالوا : ما لباسُ آبائنا إلا الحديد ، فلبسَ جريرَ دِرْعًا ، وتقلَّدَ سَيْفًا ، وأخذَ رُمْحًا ، وركبَ فرسًا لعبادِ بنِ الحُصَيْنِ ، يقال له المِنْحَاز ، في أربعين من يربوع ، وجاء الفرزدق في هيئته ، فقال جرير :

لَبِستُ سِلاحِي والفرزدقُ لُعبَةً      عليه وشأحا كُرَّجٌ (١) وجلاجلُهُ  
أعدُّوا مع الحُلِيِّ المِلابَ (٢) فإنَّما      جريرٌ لكم بعلى وأنتم حلائلُهُ (٣)

ولا بد أن الحجاجَ ضحك طويلاً حين رآهما على هذه الهيئة ، وضحك معه من شاهدتهما من أهل البصرة .

ونحن نزعم من هذا وأشباهه أن المسألة لم تكن جادة كما يتصور الرواة ، ولعل هذا ما جعل الشاعرين جميعاً يملآن نقائضهما بالفكاهة ، وخاصة جريراً ، في جوانب كثيرة من نقائضه يرمى الفرزدق بأن زوجه النوار تكرهه ، وأنه ليس فيه ما تعشقه النساء (٤) . وقد تكون قصة جِعِثَيْنِ أخت الفرزدق وما يرميها جرير به من سوء أريد بها قبل كل شيء إلى الضحك والتندر . وفي الوقت نفسه نجد الفرزدق يُعَيِّرُه بجارية له طلبت منه أن يبيعهها ، لأنها كرهته وكرهت مطعمته ومكسبته (٥) . ومن هذا الباب قصة نُبُوِّ السيف في يد الفرزدق ، وذلك أن سليمان بن عبد الملك « حجَّ وحجَّ الشعراء معه ، فلما كان بالمدينة راجعاً تلقوه بنحو أربعمائة أسير من الروم ، فقعده سليمان ، وأقربَهُمُ منه مَجْلِسًا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقدمَ يطريقهم ، فقال : يا عبد الله اضربْ عُنُقَه ، فقام ، فأعطاه أحد سيفاً ، حتى دفع إليه حَرَسِيَّ سيفاً ،

(١) الكرج : لعبة على هيئة المهر يلبس عليها الأطفال .  
(٢) الملاب : المطر .  
(٣) ابن سلام ص ٩٦ وأغانى ٧٦/٨ .  
(٤) النقائص ص ٨٠٣ وما بعدها .  
(٥) أغانى ٥٣/٨ .

فضربه ، فأبانَ الرأسَ وأطَنَّ الساعِدَ ، فقال سليمان : أما والله ما من جَوْدَةٍ سيف جادت الضربة ، ولكن لحسبه ، وجعل يدفع البقية إلى الوجوه وإلى الناس يقتلونهم ، حتى دفع إلى جرير رجلا منهم ، فلمست له بنو عَبَس سيفاً في قِرَابٍ أبيض ، فضربه ، فأبان رأسه ، ودُفِعَ إلى الفرزدق أسيرٌ ، فلم يجد سيفاً ، فلمسوا له سيفاً متيناً لا يقطع ، فضرب به الأسير ضربات ، فلم يصنع شيئاً ، فضحك سليمان والقوم ، فألقى السيف ، وأنشأ يقول ، معتذراً إلى سليمان ، وموتسياً بِنُبُوِّ سيف وِرْقَاءِ بن زُهَيْرِ العَبَسِيِّ عن رأس خالد بن جعفر بن كلاب :

إِن يَكُ سَيْفُ خَانَ أَوْ قَدْرُ أَتَى      بتأخير نَفْسٍ حَتَفُهَا غَيْرُ شَاهِدِ  
فَسَيْفُ بَنِي عَبَسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ      نَبِيًّا بِيَدَيْ وِرْقَاءِ عَن رَأْسِ خَالِدِ  
كَذَاكَ سَيُوفُ الْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَابَتُهَا      وَتَقَطُّعُ أَحْيَانًا مَسَاطَ الْفَلَائِدِ (١)

وهذه الحادثة التي أضحكت سليمان وحاشيته في الحجاز استمرَّ جرير يُضحك بها الناس في المِربَدِ بالعراق ، فكلما أراد أن يسخر من الفرزدق ويلعب به بعض اللعيب ويندِر عليه بعض التندير ذكرها في شعره ، من مثل قوله (٢) :

بَسَيْفِ أَبِي رَعْوَانَ سَيْفٍ مُجَاشِعٍ      ضَرَبْتِ وَلَمْ تَضْرِبِي سَيْفِ ابْنِ ظَالِمِ  
ضَرَبْتِ بِهِ عِنْدَ الْإِمَامِ فَأَرَعِشْتِ      يَدَاكَ وَقَالُوا مُحَدَّثٌ غَيْرُ صَارِمِ

ولا ريب في أن هذه الحادثة وما قبلها عناصر مضحكة كان يُدخِلها جرير في نقائضه لغرض الترويح عن الناس في المِربَدِ وتسليتهم ، أو قل لغرض استجلاب تصفيقهم واستحسانهم ، إذ كانت له حَلَقَةٌ كما كانت للفرزدق حلقة أخرى ، وكان المستمعون ما يزالون ينتظرون بيتاً أو شطراً يُهَلِّلون له ويصيحون ، وكانوا ما يزالون يستغزونها ، ليصوغا بيتاً أو شطراً يتعلقون به ويتندرون بفكرته ، ويُحدِّثون كل ما يريدون من شَغَبٍ وهَيَاجٍ وَتَهْرِيحٍ وَتَصْفِيرٍ (٣) .

(١) انظر في ذلك خبراً طريفاً في ترجمة أبي حزابة في الأغاني ١٥٣/١٩ حيث يروى أبوالفرج أنه هجا شخصاً يسمى عون بن سلامة =

(١) طبري ١٣٣٨/٢ وابن سلام ص ٩٤ والنقائض ص ٣٨٣ وما بعدها .  
(٢) النقائض ص ٤١٣ .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نقرب من فهم حقيقة هذه النقائض بين جرير والفرزدق وأنها كانت عملاً يتراديه - قبل كل شيء - إلى تسليمة الجماعة العربية الجديدة في البصرة ، فقد تكون المجتمع العربي هناك في شكل مدينة لأول مرة في تاريخ القبائل التي نزلت البصرة . وهي قبائل أكثرها مضرية ، إذ كان جمهورها من قبس وتميم وربيعة . وكانت هذه القبائل تعيش في أثناء العصر الجاهلي في البادية جاهدة في تحصيل قوتها وأسباب عيشها ، فلما جاءت الفتوح ، واشتركت هذه القبائل فيها ، أنزلها عمر في البصرة والكوفة ، اختطهما لها على حدود فارس .

وأخذت جموعها تعيش في هاتين المدينتين معيشة جديدة يخدمهم فيها الفرس وغيرهم من الموالى ، وقد ملأت الفتوح حجورهم بالأموال ، ونظّم لهم عطاء في دواوين الدولة ، وأتاح ذلك لهم حياة هادئة رخيصة ، ليس فيها شظف العيش القديم ، وإنما فيها الراحة والفراغ والعطلة ، وخاصة لمن لم يشركوا في الثورات والانتقاض على بني أمية .

ومن هنا وجدت في العراق وفي مدينتيها الكبيرتين البصرة والكوفة تلك الجماعة العاطلة التي يبشّر وجودها دائماً بنشوء حياة عقلية نشيطة ، فالناس يضطرون اضطراراً إلى تمضية أوقاتهم في عمل من الأعمال . وهذا ما حدث فعلاً في البصرة حيث التقت ثقافات مختلفة من إغريقية وفارسية وآرامية وعربية ، وكان من ثمار ذلك أن ظهرت حركات دينية وعقلية جديدة ، وأخذ العلماء يدرسون مسائل القدر والإيمان ، كما أخذوا يدرسون مسائل التشريع ، وينقلون ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة . وحتى اللغة بدأوا يخصصونها للدراسة منذ أبي الأسود

الأغانى ( طبع دار الكتب ) ٣٩٢/١٥ حيث نرى الفرزدق وزيادة الأعجم يتحاوران في المربد والناس من حولهما يضحكون وهللون . وفي أخبار الحكم بن عبد ( أغاني ٤١٣/٢ ) أنه هجا محمد بن حسان بقصيدة قال فيها ( أمات الله حسان بن سعد ) فذاعت ، حتى كان المكاري يسوق بقله أو حماره فيقول ( عد : أمات الله حسان بن سعد ) . وهذه كلها صور دالة على ما كان يسود المربد من تهريج ، وتصفيق ، وصغير ، وصياح .

= بأبيات فيها قذف لأمه ، فكان الناس يصيحون به ويكربون شطراً يقول فيه أبو حنيفة ( أعلمتها وعالم العلامه ) . وفي كل مكان من الأغاني نجد فيه ذكر المربد نجد الناس يتحلقون حول الشعراء وما يزالون ينتظرون البيت أو الشطر الذي يتصاحبون به . وفي أخبار العجاج أغاني ( طبع دار الكتب ١٥٢/١٠ ) أنه وقف في المربد هجو ربيعة فلجأت إلى شاعرها أبي النجم فأتى الناس ، وأخذ يشد نقيضة في العجاج ، حتى بلغ إلى قوله ( شيطانه أنى وشيطانى ذكر ) فتعلق به الناس وتصاحبوا وهرب العجاج . وانظر

الدُّوَلِيّ ، فنشأت هذه الحركة اللغوية المباركة ، التي اضطلع بها في أواخر هذا العصر أبو عمرو بن العلاء وابنُ أبي إسحاق .

ومعنى ذلك أن الحياة العقلية في العراق وفي البصرة لهذا العصر ثمرةٌ من ثمار العَطَلِ في هذه الجماعة العربية الجديدة ، وهو عَطَلٌ أخرج العرب من بداوتهم القديمة إلى حياة متحضرة فيها خصبٌ عقلي ونشاط فكري . والمفروض أن أي جماعة يوجد فيها هذا العطل تحاول أن تقضى بعض أوقات فراغها في شيء تنلهى به ، وتتسلى ، وتقطع مسافة الفراغ .

وإذا تذكرنا ما كان في مدينتي الحجاز من غناء ظننا أننا مُقْبِلُونَ في العراق على ما يشبه ذلك ، وأن البصرة ستعُنِي بفن الغناء والموسيقى كما عُنِيَت مكة والمدينة ، غير أن البصرة لم تتَّجِه هذا الاتجاه ، وكان لا بد - على كل حال - لجماعتها أن تشغَل نفسها بفنٍّ من فنون اللهو وضرب من ضروب التسلية .

ولم تكن نقائض جرير والفرزدق إلا هذا الفنَّ الجديد الذي وَجَدَت فيه البصرة كلَّ ما تريد من لَهْوٍ وتسلية وقَطْع وقتٍ أو فراغ ، فهي اللُّعْبَةُ التي كان يُعْجَب بها القوم ، والتي كانوا يخرجون للفرجة عليها في هذا المَسْرَح الكبير ، مسرح المَرِيد ، الذي كانت تختلف إليه القبائل والجماهير ، وتتعلق حلقات للاستماع إلى الشعراء ؛ وإلى ما يُحَدِّثُ جرير والفرزدق خاصة<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان يتحلَّق الناس حول الشاعرين الكبيرين هناك ، أما الفرزدق فيتعلق حوله قومه من تَمِيم وبنى دارم ومُجاشع وأخلاقٌ من قبائل أخرى ، وأما جرير فكانت تتحلَّق حوله قبيلته من كَلْبِيب وبنى يَرْبُوع كما تتعلق حوله جماعات كثيرة ، وكان بعضها من قبائل ، لم تكن في صفاء مع تميم منذ الجاهلية ، وهي قبائل قَيْس .

ويقف أحدهما فيلُتقي من جمعبته كل ما أعدّه لخصمه من سهام الشعر ، وسرعان ما يحمل الرواة هذه السهام إلى صاحبه ، فينظر فيها ويُطِيل النظر ، ثم يحاول أن يَسْتَفْضِهَا وأن يردَّ عليها سهماً سهماً ، وبيتاً بيتاً ، ومعنى معنى . فالفرزدق مثلاً يَنْشِد قصيدة أو نقيضة في هجاء قَيْس وقوم جرير كَلْبِيب ويفتخر بتَمِيم وأبجاده في الجاهلية ، وقد يضيف إلى ذلك انتصاراً للأخطل

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩/٨ وما بعدها .

وتَغْلِب . ويحمل الرواةُ التقيضةَ إلى جرير ، فيحاول أن يردَّ كل ما فيها من سهام إلى نحر الفرزدق وقومه دارم ، ويتعرض للأخطل يقذفه بدينه وكل ما يرد على خاطره . والناس من حول جرير وصاحبه يهرجون ويصفرون ويخرون للأذقان - كلما مر بهم قذفٌ أو فكاهة - ضاحكين ساخرين .

وعلى هذه الصورة كان يتكوّن في هذا العصر مَسْرَحُ المِرْبَد ، يذهب إليه جمهور النظارَة من أهل البصرة ومن يقدُّ عليهم من البادية أو من الحجاز للفُرجة على هذا الفن الذي كان يجيده الشعراء ، والناس يصفقون لهذا تارة ولذاك أخرى ، ويستثيرون بتصفيقهم كل استطاعة عندهما للتجويد والتجوير .

ليست النقائض بين جرير والفرزدق إذن جيداً خالصاً ، فقد كان يُرادُ بها إلى اللهو والتسلية ، وأن تَمَلَأَ أوقات الناس في البصرة ، ومن تَمَّ لم يُشِرْ سبَابُهَا حَقِيظَةً بين القبائل . وكما نذهب نحن الآن إلى دور التمثيل والخيالة تلهو بعض الوقت ، أو كما نذهب إلى ناد رياضي للفُرجة على لُعبَة كُرَة القدم مثلا كان نظارة البصرة يذهبون إلى المِرْبَد للفُرجة على لُعبَة النقائض .

وظلَّ الفرزدق وجرير يتقاذقان هذه النقائض أو هذه الكُرَات من الشعر حَقَباً متطاولة ، ويتجمّع أهل البصرة حولهما ، ليرا وإحسانهما وتفوقتهما في هذه اللُعبَة . ومن حين إلى حين كان يحاول بعض الشعراء الأصاغر أن يأخذ الكُرَة من جرير أو صاحبه ، فما يلبث أن يسقط في الميدان<sup>(١)</sup> . ويستمر اللاعبان الكبيران في لعبهما أو نقائضهما ؟ وكلُّ يحاول أن يُبَرِّزَ وأن يتفوق على منافسه ، تماماً كما نصنع الآن في عصرنا الحديث في هذه اللُعبَة اللطيفة التي يتسعى الناس لرؤيتها ، والتي تسمى المناظرات . والحق أن نقائض الشعارين لم تكن إلا مناظرات أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وهي مناظرات احتفظَ لنا بها الشعرُ العربي ، وقد صُنِعَت على ضوء هذه المناظرات العقلية والدينية التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع ، فكما كانت تكتظُّ البصرة بمناظرات أصحاب النَحْل والعقائد كانت تكتظُّ بمناظرات أدبية ، اشتهر منها خاصة مناظرات جرير والفرزدق .

الباهل وجندل بن الراعي الغمري وغيرهم . انظر الديوان ص ٣٤ ، ٤٥ .

(١) حاول ذلك مع جرير عشرات من الشعراء ، انظر الأغاني ٨/٨ - ١٣ وما بعدها . ومن حاول ذلك أيضاً مع الفرزدق الطرياح والأصم

وقد مرَّ بنا في غير هذا الموضوع أن الفرزدق وجريراً كانا يحضران مجالس العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم . وعلى ضوء هذه المناقشات والمحاورات وفي ظلها أُلِّفَا نقائضها في المفاضلة بين عشيرتيهما من جهة وبين تميم وقيس من جهة ثانية . وكما يحاول صاحب النحلة من الذحل أن يستدلَّ على نِحْلَتِهِ وأن يفنِّد أدلته خصمه كانا يستدلَّان على نحلتهما العصبية في عشيرتيهما ، وفي تميم وقيس ، وكانا يترَفِدَان شعرهما أو نقائضهما بكل ما يمكن من حُجَجٍ وبراهين ، يؤيدان بها وجهة نظرهما ، وفي الوقت نفسه كانا يأتیان بكل ما يمكن من أدلَّة وبراهين لتحطيم أجداد تميم وقيس ، كلُّ حسب ما يزعم فيمن أخذ صفوفهم ، ووقف معهم<sup>(١)</sup> . ولا شك في أن ذلك كان يستهوي الجماهير ، فكانت تذهب إلى المرْبِد ، ترى ما أحدث كلُّ من الشاعرين . وعلى عادة الجماهير يكثر الهرج أو يكثر التصفير والتصفيق ، ويتجمعون حول أحد الشاعرين تارة ، وينفضون عنه إلى خصمه يستمعون إليه تارة ثانية .

وعلى هذه الشاكلة كانت نقائض جرير والفرزدق تأخذ شكل مناظرات أدبية كبيرة . وهذه الكلمة كلمة مناظرات تجعلنا ننصِّع النقائض في تاريخ الأدب العربي وضعاً جديداً ، فنحن نزعم أنها حديثة العهد بالإسلام وبالبصرة في هذا العصر الأموي خاصة . فقد وُجِدَتْ فيها لأول مرة ، ورشَّح لها عاملان : عامل اجتماعي هو هذا العطلُّ والفراغُ الذي حدث في تاريخ القبائل العربية ثم ما اتصل بذلك من إحياء العصبية وتورط القبائل في أحزاب سياسية ، وعامل عقلي هو هذه المحاورات والمناقشات التي كانت تدور بكل مكان في البصرة ، في المساجد ، وفي المجالس ، وفي الطرقات والأسواق .

وهذا العامل الثاني هو الذي لَقِّنَ جريراً والفرزدق القدرة على الحوار والجِدال ، ومكَّن في شعرهما لفكرة التعليل والتسبب ووضع المقدمات وتلوين الهجاء بألوان عقلية حديثة . ومن هنا تأتي فكرة أن النقائض الأموية جديدة ، فهي

(١) يعني بها فيروها ، ثم يشرحها هذا الشرح الكبير ، فقد وجد فيها خير مادة تحطم له ولأمثاله من الشعوبين الأجداد العربية .

(١) لعل في هذا ما يلفتنا إلى أن نقائض جرير والفرزدق جمعت بين دفتها مثالب تميم خاصة ، ثم مثالب قيس وغير قيس من العرب ، وأكبر الظن أن هذا ما جعل أبا عبيدة الشعوبي

تُقالُ في جو عقلى جديد ، وتُصاغُ في جو اجتماعى جديد ، صياغةَ المناظرة لا صياغة الهجاء العادى القديم ، فالشاعر لا ينظم معانى بلويّة بسيطة ، بل ينظم معانى تتلائم مع التطور العقلى الحديث ، الذى أصابه الذهن العربى ، والذى طوره من بعض جوانبه . ومن هنا يأتى نكوص الشعراء الذين حاولوا أن يدخلوا مع الشعارين الكبيرين في هذه المناظرات ، لأنهم ظلوا محتفظين ببدواتهم وتقاليد الشعر القديمة ، ولم يستطيعوا أن يُجاروا روح العصر ، بل عجزوا عجزاً تاماً ، لأن عقولهم لم تكن مهيةً لهذه المجارة ، ولم تكن قد ثقيفت في بيئات العلماء طرق الجدال والحوار على نحو ما ثقف ذلك جرير والفرزدق .

ليست النقائص إذن أهاجى بالمعنى القديم الذى كان يفهمه العرب في الجاهلية للهجاء ، وإنما هي مناظرات أدبية أوجدتها ظروف عقلية وأخرى اجتماعية لعصر بنى أمية . ولعل من الطريف أنها اقترنت عند جرير والفرزدق بمسألة شكلية نلاحظها في مناظراتنا الحديثة ، فنحن إذا تساءلنا أين كان يقف جرير في مناظراته مع الفرزدق كان الجواب الطبيعى أنه يقف في صفوف قومه تميم ، فإن أبى تميم كان عليه أن لا يقف في صفوف خصومها . ولكن الذى حدث فعلاً أن جريراً لم يقف دائماً في صفوف تميم ولا في صفوف أنصارها ممن كانت تعاهدهم في الجاهلية والإسلام مثل كلب ، وإنما وقف في الصفوف المقابلة مع خصومها وأعدائها : صفوف قيس وفروعها وغصونها . وطبعاً كان ينصر قومه كليباً أمام قوم الفرزدق مُجاشع ، غير أنه كان يدافع أيضاً عن قيس ضد دفاع الفرزدق عن تميم ، بالضبط كما يقف المناظر في عصرنا الحديث ليدافع عن وجهة نظر مُعَيَّنة في موضوع من الموضوعات ، وليس من الضروري أن يكون مؤمناً بها ، بل قد يكون من خصومها ، ويأتى به من أعدائها والمناظرة للإغراب على الناس وجمهور النظارة .

وعلى هذا النمط جلت قيس جريراً ليزود عنها أمام الفرزدق وتميم ، فتمت بذلك صورة بعض مناظراتنا الحديثة حين يدخل شخص في مناظرة وهو غير مقتنع بفكرة من الأفكار ، فيوضع للدفاع عنها ، وبذلك تصبح المسألة لعبة عقلية لا أقل ولا أكثر ، يُرادُ بها إلى تسلية السامعين والميران على الجدل

والحوار في المسائل أيًا كان الوضع ، وأيًا كانت الغاية .  
 ألسنا إذن في نقائص جرير والفرزدق بلزاء مناظرات أدبية حقيقية ؟ فهذا  
 جرير يقف في المربد ليدافع عن قيس ، وما عهدنا في الجاهلية ولا في الإسلام  
 شخصًا يتنازل هذا التنازل عن قبيلته ، ويلحق بقبيلة أخرى ، يتعصب لها ،  
 ويتشيع لأهلها وأبنائها، على نحو ما يتشيع ويتعصب جرير لقيس أعداء تميم  
 في الجاهلية والإسلام .

ولو أن الإسلام استطاع أن ينسي العرب عصبياتهم وأن يمتحوها عموا  
 لاستطعنا أن نفهم موقف جرير ، غير أننا نعرف أن الإسلام لم يستطع أن يقف  
 العصبية إلا إلى مدة محدودة ، فقد خمدت نيرانها قليلًا ، ثم عادت إلى الاشتعال  
 منذ فتنة عثمان ، وظلت تتأجج طوال عصر بني أمية ، حتى في أقصى الشرق ، في  
 خراسان ، وفي أقصى الغرب ، في الأندلس . ومعنى ذلك أن العرب لم يستطيعوا  
 أن يتخلصوا من عصبياتهم يومًا ، فإذا جاء جرير التميمي يتعصب لخصوم قومه  
 من قيس لم نستطع أن نحل هذه المشكلة إلا على أن المسألة كانت مسألة  
 مناظرات أدبية اجتماعية ، أو مسألة لعبة يتفرج عليها الجمهور في البصرة .  
 قد يقال إن المسألة مسألة تورط ، إذ اتصل جرير بولاة الزُبَيْريين في العراق ،  
 ووصله ذلك بأنصار ابن الزبير وعلى رأسهم قيس ، واستمر هذا الاتصال وخاصة  
 في عهد الحجاج . وأيضًا فإن قيسًا كانت تكافئه على موقفه منها ، وكانت تصب  
 في حجره بعض أموالها ، على ما أشرنا إليه فيما مر من كلامنا .

ونحن لا ننكر السبب السياسي في نشأة النقائص بين الشعارين ولا السبب  
 المادي في استمرارها ، ولكننا مع ذلك نزع أن المسألة تحولت في نفسية جرير إلى  
 صورة من صور المناظرة ، بل لقد تحولت هذا التحول في نفوس الناس عامة ،  
 حتى نفوس الخلفاء المرثيين أنفسهم ، الذين كانوا يخاضعون قيسًا ، أو على  
 الأقل كانت كرتهم تخاضع قيسًا ، كما كانت تخاضعها تميم ، فإن هؤلاء  
 الخلفاء كانوا يستمعون إلى جرير شاعر قيس ، ولم تكن تضييرهم فيه هذه القيسية .  
 فخلفاء بني أمية لم ينظروا إلى النقائص بين جرير والفرزدق أو بينه وبين الأنخل  
 نظرة جادة ، فقد فهموها على حقيقتها وأنها لعبة القبائل الجديدة في العراق وفي

البصرة خاصة ، تُمَضِّي فيها أوقات فراغها ، وتكَلِّهُو بعض اللّهْوِ بها . ومن هنا لم يجدوا حَرَجًا في أن يضمّن جرير والفرزدق والأخطل مديحهم شيئًا من هذه المناظرات لغرض التّسليّة والتّرفيه ، وأن يَطْلِعُوا وهم في قصورهم على جوانب من هذه المناظرات ، التي سارت بها الركبان ، وعمّت في كل مكان ، وأصبحت حديث العرب ومجامعهم ، وطُرْفَة مجالسهم ومحافلهم .

وعلى هذه الشاكلة لم تعد المسألة مسألة أهاجٍ فحسب ، بل أصبحت مسألة مناظرات ومحاورات ، ومناقشات ومجادلات ، وكانت تُصاحِبها السياسة حينًا ، كما صاحبت نقائض جرير في أصل نشأتها ، وتنفصل عنها حينًا ، كما انفصلت عنها في أثناء ولاية غير القيسيين على العراق ، ومع ذلك تستمر . فجرير يناظر عن قيس في أثناء حكم الزبيريين وأثناء ولاية الحجاج القيسي وعمر بن هبيرة الفزاري على العراق ، ويناظر عنها أيضًا بعد إدار الأمر عن الزبيريين ، وكذلك في أثناء ولاية غير القيسيين على العراق من مثل يزيد بن المهلب الأزدي وخالد القسري . وهذا كله معناه أن نقائض جرير والفرزدق كانت مناظرات اجتماعية بكل ما يمكن أن تحمّل هذه الكلمة من معنى ، وكذلك كانت عند معاصريهما ومن كانوا يختلفون إليهما . وعلى نحو ما نضع نحن الآن في مناظراتنا حين يتقف شخص يدافع عن وجهة نظر معينة ، ثم يردّ عليه صاحبه أو مناظره ، وفي أثناء ذلك ينصت الجمهور ، ويستمع ، ثم يقوم من بينه من ينصّر هذا المناظر أو ذاك ، كذلك كان الشأن في مناظرات جرير والفرزدق أو في نقائضهما . وكان أكثر المنتصرين يقفون في صف الفرزدق ، لأنه كان فعلاً متفوقاً في أسرته ومكانته الاجتماعية . ومن وقف في صفه سُرّاقة البارقي ، وفيه وفي جرير يقول (١) :

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ بَرَزَتْ أَعْرَاقُهُ عَقُوقًا وَعُودِرَ فِي الْغُبَارِ جَرِيرُ

ومن وقف في صفه أيضاً الراعي الشاعر الثميري القيسي ، وهيات لذلك صلته ببشر بن مروان ، كما أسلفنا ، فقال (٢) :

يا صاحبي دَنَا الرّوَّاحُ فسيراً غَلَسَ الْفَرَزْدَقُ فِي الْمَجَاءِ جَرِيرَا

وثار جرير على الراعي ، وغاظه أنه ينضم إلى الفرزدق ، مع أنه يقف في المربد مدافعاً عن قومه مادحاً لهم أمام مناظرات الفرزدق ونقائضه ، فقال فيه وفي الفرزدق بائته المشهورة ، وكان يُسميها الدماغة والمنصورة<sup>(١)</sup> ، وفيها يقول للراعي بيته المأثور :

فغض الطرف إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغنت ولا كلاباً

والذين قضوا للفرزدق على جرير كثيرون ، منهم المزار بن منقذ ، وثور بن الأشهب بن ربيعة النهشلي ، والد لهنس وهبيرة بن الصلت التميميان ، والطهوي<sup>(٢)</sup> ثم الصلتان العبيدي ، وقد فضل الفرزدق في المجد ، وفضل جريراً في الشعر<sup>(٣)</sup> ، ولعله الوحيد الذي رأى أن يرضى الطرفيين .

وعلى هذا النحو كلما أمعنت في درس النقائض واتصلنا بوجوها وظروفها وجدناها تتطابق تماماً مع صور المناظرات الأدبية التي نعرفها ، فإذا قلنا بعد ذلك كله إنها كانت مناظرات اجتماعية ولم تكن أهاجى بالمعنى القديم ، وأنها مناظرات لا عهد للعرب به لم تكن مغالين ولا مبغدين في شيء .

وإذا رجعنا نُحلِّلُ عناصر هذه المناظرات بين جرير والفرزدق وجدناها تنحلُّ إلى نفس العناصر التي تحدثنا عنها سابقاً عند جرير والأخطل في نقائضهما . فكل نقيضة لأحد الشاعرين نراها تنحلُّ إلى مفاخر الجماعة التي يتحدث باسمها ومثالب خصومها ، فالفرزدق مثلاً حين ينظم نقيضته يعرض لمفاخر تميم ، ثم يصبُّ على قيس ، كما يصبُّ على كليب قوم جرير ؛ هجاءه ، وكأنه أسواطُ عدِّاب . وقد يعرض في أثناء ذلك لمفاخر تغلب يريد أن يؤيد خصم جرير الثاني ومناظره : الأخطل فيما يذهب إليه . وفي الصف المقابل نجد جريراً حين ينظم نقيضته يعرض لمفاخر قيس ، وقومه من يربوع خاصة ، كأنه يريد أن يخبر جهم من تميم ، ثم يتحول إلى قوم الفرزدق ، وخاصة مجاشعاً ودارماً ، فيرميهم بكل ما يستطيع من سهام الهجاء ، كما يرمي تغلب وصاحبها

(٢) الشعر والشعراء ص ١٣ وانظر ابن سلام ص ٩٥ .

(١) النقائض ص ٤٣٠ .  
(٢) انظر الأغاني ٢٣/٨ وما بعدها .

الأخطل بكل ما يستطيع من حجارة القَدْف .

وفي أثناء ذلك كله يسوق الطرفان المتناظران كل ما كان لتمييم وقييس وتغليب من أيام في الجاهلية والإسلام ، وبذلك تُصَبِّح نَقَائِضُهُمَا ، كما أصبحت نقائض جرير والأخطل ، وثائق مهمة في تاريخ القبائل العربية ، فليس هناك من حرب وقعت في الجاهلية بين هذه القبائل أو بين فروعها وغصونها ، وكذلك ليس هناك من حرب وقعت بينها في الإسلام إلا ويسلُكُهَا الشاعران في نقائضهما . ومن هنا كان شرح هذه النقائض لأبي عبيدة جامعا وشارحا ليس أكثر من عَرَضٍ واسعٍ لأيام العرب ووقائعهم في الجاهلية والإسلام وكل ما اتصل بهذه الأيام والوقائع من حوادث وأشعار .

وإذن فنقائض جرير والفرزدق تعتمد على عنصر مهم ، وهو عنصر تاريخي يقوم على الثقافة بتاريخ القبائل القديم ، كما يقوم على الثقافة بتاريخها الحديث . وهذا العنصر في النقائض قد يكون غريباً على أذواقنا الآن ، ولكن من غير شك له طرافته ، لأنه يضع تحت أعين الباحثين مادة كبيرة لتاريخ القبائل العربية .

وإذا كانت أذواقنا تَتَنَفَّرُ من هذا القسم الآن ، فما لا ريب فيه أن جمهور المتفرجين في المربد كان يُعْجَبُ به ويتجدد فيه مُتَعَمِّعَةً واسعة ، لأنه يعرض التاريخ القديم ، ويُجَسِّمُهُ للناس شعراً ، فكل ما لتمييم وقييس وتغليب في الجاهلية من أيام ووقائع ومفاخر ومثالب يُسَجَّلُ ، تُسَجَّلُهُ هذه الآلة اللاقطة ، آلة المناظرات الأدبية الحديثة عند جرير والفرزدق .

ومادة هذا التاريخ القديم في النقيضة كان يقابلها مادة جديدة تتصل بالحياة الإسلامية الحديثة وما جدد من ظروف سياسية . فهذان الشاعران الكبيران حين كانا يقفان للمناظرة في المربد كانا يفكران في أمر الجماعة الإسلامية وأمر بني أمية وصلابة القبائل بهم . فكانت نقائضهما تتعرض للشئون السياسية التي عاصرتهما . فمثلاً إذا ثارت قيس على الخلافة تعرض لها الفرزدق يستد بها ويتشفي ، ويحاول أن يضربها وشاعرها الضربة القاضية على نحو ما نجد في نقيضته الميمية :

تَحِينُ بِزَوْرَائِ الْمَدِينَةِ نَاقِي حَسِينِ عَسْجُولٍ تَبْتَغِي الْبَوْرَاءِ

فقد ضَمَّنَ هذه النقيضة مديحاً لسليمان بن عبد الملك وهجاءً لقيس وثائرها في خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي، وكان الذي قتله وكيع بن أبي سُود اليربوعي التميمي، فاستغلَّ الفرزدق ذلك، وكتب هذه النقيضة، يُسَجِّلُ على قيس مساوئها ضد بني أمية، وفي الوقت نفسه يسجل انتصار تميم لهم كلما ثار ثائر قيس.

ومعنى ذلك أن النقائض عند جرير والفرزدق كانت تستمدُّ من الحديث، كما كانت تستمد من القديم، وكانت تتأثر الظروف السياسية المختلفة في عصرهما. وليس هذا فحسب، فإنها كانت تتأثر عناصر إسلامية خالصة، ويتبين ذلك فيما يضمُّنها الشعراء من مديح وهجاء، فالفرزدق مثلاً في نقيضته الميمية هذه يقول لسليمان بن عبد الملك:

جَعَلْتَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ عَدَاً وَرَحْمَةً  
وَبُرْءاً لَأَثَارِ الْجُرُوحِ الْكُتُومِ

وفي كل مكان من هذه النقيضة نجد العنصر الإسلامي فهو في غزها يخاف يوم التخاصم أي يوم القيامة، وهو في هجائها يذكر طغيان الحجاج ويشبهه بفرعون حين بغى، وطلب إلى هامان أن يسبى له صرحاً، لعله يطَّلَعُ إلى إله موسى، كما يشبهه بابن نوح حين أعرض عن دعوة أبيه، وقال: «سأوى إلى جبيل يعصمني من الماء... فكان من المغرِّقين» وفي الوقت نفسه نراه يدعو قيساً حين ثارت مع صاحبها في خراسان مشرِّكةً بربِّها، يقول في ذلك:

وَلَمَّا رَأَيْنَا الْمُشْرِكِينَ يَقُودُهُمْ  
قُتَيْبَةُ زَحْفًا فِي جُمُوعِ الزَّمَازِمِ  
ضَرَبْنَا بِسَيْفٍ فِي يَمِينِكَ لَمْ نَدْعُ  
بِهِ دُونَ بَابِ الصَّيْنِ عَيْنًا لظالمِ  
بِهِ ضَرَبَ اللَّهُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا  
بِبَدْرِ عَلَى أَعْنَاقِهِمُ وَالْمَعَاصِمِ

فهو يجعل قيساً مشرِّكةً بربِّها كافرةً بأنعمه، ويجعل مجموعها كجموع الزمازم، وهم الجوس الذين يجاهدهم المسلمون، وفي الوقت نفسه يجعل تميمًا وصاحبها وكيع بن أبي سُود يضربان في قتيبة وأنصاره بسيف الله، الذي ضرب به الرسول والمسلمون يوم بدر.

وإدماً نجد هذه العناصر الدينية في نقائض الفرزدق، تارة يعدل إلى قصص من القرآن، وتارة يعدل إلى بعض صورته أو بعض أساليبه، كقوله في جرير (١):  
ضَرَبَتْ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ

يريد أن بيّنت جرير في الوهن والذل كبيت العنكبوت الذي ورد في الذكر الحكيم، إذ يقول جل وعز « وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتَ لَيْتَ الْعَنْكَبُوتُ » .

وفي مقابل ذلك كان جرير هو الآخر يستعين بالعناصر الإسلامية في مديحه وهجائه جميعاً، وقد مرّ بنا في حديثنا عن حياته مدى ما كان يُصوّر به الخليفة الأيوبي من خصال إسلامية، كما مرّ بنا في حديثنا عن نقائضه مع الأخطل كيف كان يهجوّه بمسيحيته. وفي كثير من نقائضه مع الفرزدق يهجو الأخطل وتغلب معه، ويَعَجَّبُ من وقوفه مع تغلب المسيحية ضد قيس المسلمة، وفي ذلك يقول له (٢):

فَخَرَّتْ بِقَيْسٍ وَاْفْتَخَرَتْ بِتَغْلِبٍ فَسَوْفَ تَرَى أَيَّ الْقَرِيْقَيْنِ أَرْبَحُ  
فَأَمَّا النَّصَارَى الْعَابِدُونَ صَلِيْبَهُمْ فَخَابُوا وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَأَقْلَحُوا

ويسترسل في هجاء الأخطل بمسيحيته. أما الفرزدق فكانت فيه تُغرّة فسق واستهتار، وكان جرير دائماً يستغلّها، ويدخل منها في هجائه له، من مثل قوله (٣):

أَتَيْتَ حُلُودَ اللَّهِ مُدًّا أَنْتَ يَافِعٌ وَشِئْتَ فَا يَنْهَاطُ شَيْبُ الْهَازِمِ (٤)  
تَتَّبِعُ فِي الْمَخَاوِرِ كُلِّ مُرِيْبَةٍ وَنَسْتُ بِأَهْلِ الْمُحْصَنَاتِ الْكِرَامِ

وفي كل مكان من نقائض جرير نجده يرمي الفرزدق من هذا الجانب، ويرى قومه معه، من مثل قوله فيه (٥):

إِنَّ الْمَوَاجِنَ مِنْ بَنَاتِ مُجَاشِيْعٍ  
إِنَّ الْبَعِيْثَ وَعَبْدُ (٦) آلِ مِقَاعِيسٍ  
مَأْوَى اللَّصُوْصِ وَمَلْعَبُ الْعُهَّارِ  
لَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْأَحْبَارِ

(٤) الهازم: أصول اللعين .

(٥) النقائض ص ٢٤٠ .

(٦) يريد الفرزدق ..

(١) النقائض ص ١٨٣ .

(٢) النقائض ص ٥٠٦ .

(٣) النقائض ص ٣٩٦ .

وتبييتُ تشربُ عند كلِّ مُقْتَصَصٍ (١) خَضِيلِ الْأَنَامِلِ وَاكْفِ الْمِعْصَارِ  
لَا تَفْخَرَنَّ فَإِنَّ دِينَ مَجَاشِعِ دِينَ الْمَجُوسِ تَطُوفُ حَوْلَ دَوَارِ (٢)

فقد زعم أن الفرزدق وصاحبه البعيث لا يحفظان القرآن، ويقول الشُّرَّاحُ إنه يريد أنهما لا يُوقَّيان بالعهود لقوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » . غير أننا نرى أن جريراً يُطْلِقُ ولا يُقَيِّدُ، ويعم ولا يخصُّ ، فهو يريد أن الفرزدق وصاحبه لا يسيران على الصراط المستقيم ، وقد ذهب يُصَوِّرُ فِسْقَ الفرزدق وملازمته لبيوت الخُمَّارين من أهل الذمة ، ولم يلبث أن ادَّعى على مجاشع كلها أن دينها دين المجوس .

وواضح أن الهجاء على هذا النحو كانت تدخل فيه الخصال الإسلامية الجديدة ، فالشعراء يعتدُّون في هجائهم بالمثل الأعلى الذي أَرَادَهُ الإسلام للمسلمين من طهارة وفضيلة وما يتصل بالفضيلة . ويضاف إلى ذلك النزعة الدينية الخاصة التي كان يُريدها الخلفاء في مدائحهم ، حين يُلِمُّ بهم جرير والفرزدق ومن على شاكلتهما .

ومن هنا كنا نقول إن النقيضة عند الشاعرين كانت تحوى عناصر قديمة من الأيام والأبجاء الجاهلية وعناصر حديثة من الاتصال بالعصر والدين والسياسة . وكان على الشاعر الممتاز أن يوازن بين هذه العناصر كلها ، وأن يمثلها في نقيضته ، وأن يضيف كل ما يمكن من سخرية بقبيلة صاحبه حتى يسقط به سقطه لا يقوم من بعدها أبداً . وليس هذا فحسب ، فنحن نجد كلا من جرير والفرزدق يتعلَّقان بالشرع بأسلوب القرآن الكريم وقصصه ، ويستمدُّ منهما في نقيضته ، كما يتعلَّقان بالشعر القديم وما فيه من صور ، ولأنهما ليعتدَّان في مديحهما وهجائهما بالخصال القديمة من كرم ومروءة وشجاعة ووفاء ، بجانب الخصال الإسلامية الجديدة ، فالقديم والجديد كانا يمتزجان بصور مختلفة .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن هذه المناظرات الأدبية التي نهض بها الفرزدق وجرير في النقائص كانت فنّاً معقداً لم يستطع الشعراء العاديون أن يُحسِنوه لأن

(١) المقصص : الذئب الذي جزت ناصيته . (٢) دوار : صنم .

من يُحسِنه يحتاج عقلية ممتازة قد ثقفت الطرق الحديثة في الحوار والجدل ، ولها من القدرة على مَرزَج القديم والجديد ما يُؤَهِّلُهَا للقيام على هذا العمل الفنى .

لم تعد قصيدة المهجاء إذن تَخُوِضُ في معانى محدودة ، بل أصبحت تتناول معانى واسعة ، أو قل معانى معقدة ، فيها جاهلى قديم ، وفيها إسلامى حديث ، وفيها هذا التلوين العقلى الذى لا بُدَّ للشاعر أن يكتسبه من بيئة العلماء الذين يتحاورون فى النَّحْلِ ومساائل القَدَرِ والإيمان .

وقد مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن الفرزدق وجريراً كانا يَتَّصِلَانِ مباشرة ببيئات الفقهاء وما فيها من مناقشة وحوار ، وأن الفرزدق كان يُدْخِلُ فى شعره بعض المسائل الفقهية ، وأن جريراً كان يَتَّصِلُ بأصحاب الحَيْكَلِ فى الفقه ومَثَلْنَا من شعرهما على هذا الاتصال .

وليس هذا فحسب ، فقد اتصل الشاعران بمناقشات القَدَرِ ، فكانا يَنْزِعَانِ نَزْعَةَ جَبْرِيتَ ، وقد أشرنا إلى هذا فى غير موضع . فإذا قلنا إن عقليتهما فى هجائهما كانت عقلية جديدة مَرَّتْ عَلَى الحِوَارِ والحيلة فى الحوار لم تكن مغالين ، بل كنا مُطَابِقِينَ للواقع .

وهذا مَعْنَى ما نزعناه من أن نقائض جرير والفرزدق تُمَثِّلُ عقلية جديدة ، وتُعَبِّرُ عن تطوُّر جديد فى الفكر العربى ، وما دَعَمَهُ من طرق استدلال وِبَرِّهَتَهُ فى المسائل والمشاكل . ومن هنا كانت هذه النقائض تستقل عن المهجاء القديم ، إذ أصبحت فَنًّا معقدًا ، وهو تعقيد يقوم على المزج بين عناصر قديمة وأخرى جديدة ، كما يقوم على طُرُق الاستدلال الحديث ، التى كان يستمع إليها جرير والفرزدق فى بيئات الفقهاء والعلماء فى أثناء محاوراتهم ومناظراتهم .

والحق أن جريراً والفرزدق طَوَّرَا المهجاء القديم تَطَوُّراً هائلاً ، فقد أخرجاه من معانيه البدوية البسيطة إلى هذه المناظرات الواسعة فى حقيقة عسيريتهما وحقيقة قَيْسِ وتَمِيمِ . وفى أثناء ذلك كانا يتناظران فى قَيْسِ وتَمِيمِ . وبذلك تتسع مناظراتهما فتشمل كل ما كان يَخُوِضُ فيه جرير مع الأخطل وكل ما كانا يعرضان له ، ثم تنفرد بما كان بين كليب ومجاشع ، وقيس وتميم . وأيضاً فإن مُقَامَ الفرزدق مع جرير فى البصرة جعل المناظرات بينهما تأخذ صورتها الكاملة ، فبينما كانت نقيضة

الأخطل يحملها الرواة في أغلب الأحيان إلى جرير ليردّ عليها ، وكان ذلك يأخذ مسافة من الزمن ، تَطُولُ وتَقْصُرُ ، كان الفرزدق يقف في ناحية من الميربند ، وحوله أنصاره ، فيُنشئُ النقيضة أو يُلقيها ، فيحملها الرواة إلى الحلقة الثانية المقابلة ، التي يقف فيها جرير مع أصحابه .

ومن هنا كانت نقائض جرير والفرزدق مناظرات بالمعنى الكامل . وكان يحدث أن يذهب أحدهما إلى حلقة الآخر فيُلقي النقيضة التي أنشأها ، ولا ينتظر حتى ينقلها الرواة عنه . يدل على ذلك ما رواه صاحب الأغاني بصدّد النقيضة التي نظمها جرير في هجاء الفرزدق والراعي النميري ، إذ قال « لما أصبح جرير ، وعرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالميربند ، وكان يُعرفُ مجلسه ومجلس الفرزدق ، دعا بدّهن فادّهن وكفّ<sup>(١)</sup> رأسه ، وكان حسن الشعر ، ثم قال : يا غلام أسرج لي ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق ومعه الراعي ، حتى إذا كان بموضع السلام قال : يا غلام قُل للراعي : أبعثك نِسْوتك تُكسِبُهِنَّ المالَ بالعراق ؟ أما والذي نَفَسُ جرير بيده لترجعنَ إليهنَ بِمَيْرٍ<sup>(٢)</sup> يسوءهن ولايسرهن ، ثم اندفع فيها فأنشدّها ، فنكس الفرزدق والراعي ، وأرم<sup>(٣)</sup> القوم ، حتى إذا فرغ منها سار إلى مجلسه<sup>(٤)</sup> . وفي هذا الخبر ما يدل على أن الشاعر كان يَسْتزَيُّ بأجمل ثيابه وأعطرها ، كى يذهب إلى الميربند للمشاركة في هذه المناظرات .

ويروى الرواة أخباراً أخرى تتصل بهذه النقيضة ، تدل على الطريقة التي كانت تنتقل بها هذه المناظرات ، فهم يقصّون أن جريراً حين حاول صنّع هذه النقيضة قال لراويته المسمى حسينا : زد في دهن سراجك الليلة ، وأعدّ ألواحاً ودواة . فما زال جرير يصوغ البيت والحسين يكتب ، حتى انتهى من النقيضة<sup>(٥)</sup> .

وفي هذا ما يدلُّ دلالة واضحة على أن النقيضة لم تكن تُنقل عن طريق الرواية

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .  
(٢) المير : الضمام .  
(٣) أرم القوم : سكتوا .  
(٤) أغاني ٣٠/٨ .  
(٥) النقائض ص ٤٣٠ وأغاني ٣٢/٨ .

الشفوية ، بل كانت تُنقلُ عن طريق الكتابة . وفي ابن سلام أن جريراً لما فرغ من هذه النقيضة ، وأصبح بالميربند قال : يا بَنِي تَمِيمِ قَسِيدٌ وَقَسِيدٌ ، أَيْ اكِتَبُوا<sup>(١)</sup> . وفي الشعر والشعراء أن « أبا عمرو بن العلاء كان في حلقمة جرير ، وهو يُعَلِّمُ نَقِيضَتَهُ فِي الْأَخْطَلِ :

وَدَعَّ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ      إِنَّ الْوَدَاعَ لِمَنْ تَحِبُّ قَلِيلُ<sup>(٢)</sup>

فالرواةُ والناسُ كانوا يجلسون حول جرير في الميربند ، فيستمعون إلى ما يُنشد ، بل إلى ما يُعَلِّمُ ، إذ كانوا لا يكتبون بالسمع ، بل كانوا يُضيفون إليه الكتابة .

ولا ريب في أن الفرزدق كان يتخذ نفس الطريقة ، فهو يتقف في الحلقة الأخرى يُعَلِّمُ مناظرته على الرواة والناس ، وهم يكتبون . وفي الأغاني أنه توعد خالد بن كلثوم الكلبي - وكان قد دون من شعره وشعر جرير - أنه سيهجوهُ إن لم يكتب نقائضه<sup>(٣)</sup> . وهذه كلها أخبارٌ ونصوصٌ تشهد بأن النقيضة كانت تُكْتَبُ حين إنشاد الشاعر لها ، وأكبر الظن أنه كان يُنشدُها من صحيفة مكتوبة أو صُحُف . وبعد فراغه من إملائها وكتابة الرواة لها كانوا يأخذونها إلى خصمه ، فيتناولها منهم ، ويتأمل فيها ، ثم يحاول الردَّ عليها .

وربما كان في هذا الصنيع ما يفسر لنا هذه الظاهرة المُطَرِّدَةَ في النقائض ، فإن كل من يطلع عليها يلاحظ في وضوح ضَعْفَ الشاعر الثاني الذي يُطَلَّبُ إليه الردُّ على زميله ، فإنه لم يكن يأخذ من الوقت ما يأخذه في صنْعِ نَقِيضَتِهِ إِذَا كَانَ هُوَ الْبَادِي أَوَّلًا ، فالرواة والناس من حوله يتعجلونه ويستحثونه أن يردَّ في أقرب فرصة ، فيمسك بالنقيضة ويقرؤها ، ثم يحاول أن يردَّ عليها دون رَيْث ، حتى يثبت مهارته وتفوقه .

وليس لدينا أخبار كثيرة تدل على ذلك ، ولكن صاحب الأغاني احتفظ بخبر بالغ الدلالة ، فقد روى أن سُرَّاقَةَ الْبَارِقِيِّ فَضَّلَ الْفَرَزْدَقَ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَصِيدَةٍ

(٣) أغاني ١١/١٩ وما بعدها . .

(١) ابن سلام ص ١٠٤ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٨٦ .

طويلة ، فأخذها بيشر بن مروان وهو وال على العراق ، فأرسلها إلى جرير ليردّ عليها ، قال أبو عبّيدَة : حدّثني أيوب بن كُسيب عن أبيه ، قال : « كنت مع جرير ، فأتاه رسولُ بيشر بن مروان فدفع إليه كتابه ، وقال له : إنه قد أمرني أن أوصله إليك ، ولا أبرح ، حتى تُجيب عن الشعر ، في يومك إن لقيتك نهراً ، أو ليلتك إن لقيتك ليلاً . وأخرج إليه كتابَ بيشر ، وقد نسخ له القصيدة ، وأمره بأن يُجيب عنها » . ويمضى الخبر ، فيذكر أن جريراً تناول القصيدة من رسول بيشر ، ومكث ليلته يحاول أن يرد عليها ، وما زال يُجهد نفسه ، ويجهد ، حتى نظم قصيدة في هجاء سُراقَة يقول فيها لبِشْر :

يا بيشرُ حقّ لوجهك التّبشِيرُ هَلَا قُضيتَ لنا وأنتَ أميرُ

ولما فرغ منها أخذها الرسولُ ، ومضى بها إلى بيشر ، فقُرئت بالعراق ، وأفحِمَ سُراقَة ، فلم يَنطِقْ بعدها بشيء من مُناقضته<sup>(١)</sup> .

ولا نلشك في أن هذا نفسه ما كان يحدث بين جرير والفرزدق ، فأحدهما إذا صنَع نقيضةً ، وأنشدها الناس ، أو قل أملاها الناس في الميربّد ، كتبتبها الرواة ، ثم ذهبوا بها إلى الشاعر الثاني ، فدفعوها إليه ، كي يرُدّ عليها وينقُضها ، وأحياناً كان الشاعر يَمُرُّ على خصمه في مجلسه ، فلا يكلفه مَسْؤنة الانتظار ، بل يملئ نقيضته عليه وعلى من حوله ، ويمضى إلى مجلسه ، ينتظر الردّ على نحو ما صنَع جرير في نقيضته ، التي أنشأها ضد الفرزدق والراعي .

ومعنى ذلك كله أن نقائض جرير والفرزدق كانت مناظرات مكتوبة ، ويؤكد ذلك الطريقة التي كانت تتبّع في صياغتها وفي طريقة نظمها ، إذ نرى الشاعر يردّ على معاني النقيضة الأولى معنئى معنئى ، ولا يتأتى ذلك من الوجهة العملية إلا إذا وُضعت النقيضة الأولى تحت بصّره ، ونظر في أفكارها ففكرة فكرة . ولعل هذا يحلّ إشكال اتفاق الأسلوب أحياناً ، فبعض الأبيات يكاد يكرّر مع اختلاف بسيط ، ويظهر هذا خاصة في الأبيات الجيدة التي يقولها الشاعر الأول ، فثلاً في نقيضة الفرزدق التي استهلّها بقوله<sup>(٢)</sup> :

إِنَّ الَّذِي سَمَّكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا      بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ  
بَيْتًا بَنَاهُ لَنَا الْمَلِكُ وَمَا بَنَى      حَكَمَ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ

نجد جريراً حين يحاول الردَّ عليها يتأثر بهذين البيتين تأثراً يبلغ حدَّ السَّيْطَرَةِ عليه ، فيضطرُّ أن يردَّ عليهما بصياغة ، تتفق مع صياغتهما ، فيقول<sup>(١)</sup> :

إِنَّ الَّذِي سَمَّكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا      عَزًّا عَمَّاكَ فَا لَهُ مِنْ مَنَقَلِ

ويتكرَّر هذا كثيراً في النقائض . وفي رأينا أنه يدلُّ دلالة قاطعة على أن النقيضة الأولى كانت تُوضَعُ أمام الشاعر في صُحُفٍ مكتوبة ، وكان يرد عليها ، ويضطرُّ لبُ إزاء بعض الأبيات ، فلا يستطيع نَقْضَهَا إلا باجْتِلَابِ نَفْسِ أسلوبها وصياغتها .

على كل حال تدلُّ صورةُ النقائض بين جرير والفرزدق وأخبارها على أنها كانت تُكْتَبُ ، وأن الشاعر كان يَنْظُرُ فيها ، ثم يردُّ على خصمه أو زميله . وهذا هو الذي أعطى جريراً والفرزدق الفرصة كي يُحَسِّنَا فَتَنَهُمَا ، وَيَسْهَمَا بِهِ لِأَنَّ الشَّعْرَ حِينَ يُكْتَبُ يَكُونُ شَيْئاً آخَرَ مِنْ حَيْثُ التَّجْوِيدُ الْفَنِيُّ يَخْتَلِفُ عَنْ هَذَا الشَّعْرِ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى الْإِنْشَادِ وَالرَّوَايَةِ الشَّفْوِيَّةِ فَحَسْبُ ، فَالشَّاعِرُ يَأْخُذُ فِي قِرَاءَةِ النَّقِيضَةِ مَتَانِيحاً مُتَشَابِهَةً ثُمَّ يردُّ عَلَى خِصْمِهِ ، وَقَدْ أَلَمَّ بِجَمِيعِ الْمَعَانِي الَّتِي طَرَقَهَا . وَهُوَ يَعُودُ إِلَى اسْتِعْرَاضِهَا وَالرَّدُّ عَلَيْهَا مَعْنَى وَمَعْنَى وَفِكْرَةٌ وَفِكْرَةٌ .

وعلى هذا النحو كانت النَّقِيضَةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ تُكْتَبُ كِتَابَةً ، وَكَانَ يُقْصَدُ بِهَا إِلَى الْمُنَاطَرَةِ وَاسْتِخْرَاجِ إِعْجَابِ النَّاسِ فِي الْمِرْبَدِ ، وَكَانَ الشَّاعِرُ مَا يَزَالُ يَلَامُ فِيهَا بَيْنَ تَرَاثٍ قَدِيمٍ مِنْ أَيَّامِ الْقَبَائِلِ وَمَفَاخِرِهَا ، وَبَيْنَ تَرَاثٍ جَدِيدٍ يُدْخِلُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ ، وَمَا اشْتَبَكَ مَعَهَا مِنَ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ تَارَةً ، وَمِنْ السِّيَاسَةِ الْحَدِيثَةِ وَظُرُوفِ الْقَبَائِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ تَارَةً أُخْرَى .

فالنقيضةُ عند جرير والفرزدق تطوَّرت تطوَّراً واسعاً من جميع النواحي ، فهى مناظرة تكتب من جهة ، وهى عمَلٌ أدبيٌّ يَسْتَعْرِقُ جُهْداً مَجْدِداً مِنْ

جهة أخرى . وقد أخذت على هذا الأساس تتسع فصولها وتتسع موضوعاتها ، وتضطرب في الشؤون العقلية والدينية والسياسية التي صادفت الأمة العربية حينئذ . وليس هذا كل ما يلاحظ عليها ، فهناك ناحية لم نتحدث عنها حتى الآن ، وذلك أن جريراً والفرزدق حين نهضاً بهذا العمل استعانا فيه بكل ما يمكن من توليد للمعاني وتركيب فيها . أما من حيث التركيب ، فقد أدخلها عليها معاني جديدة اجتلباها من الإسلام ومن المسائل العقلية التي اصطرع فيها العلماء والناس ، وأما من حيث التوليد فإن المعنى الذي كان يدور في نقائضهما كانا يعرضانه في صور مختلفة .

أما ما يزعمه النقاد من أن جريراً يُكسّرُ أربعة معانٍ في هجائه لا يكاد يعدوها ، وهي قَتْلُ مُجَاشِعٍ لِلزُّبَيْرِ حِوَارِيَّ الرَّسُولِ ، وَأَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَتَيْنَ ابْنَ قَتَيْنٍ ، وما يرميه في أخوته جيعثين ، وما كان من نُبُوِّ السيف في يده حين ضربَ الروميَّ ، فليس بصحيح . وقد ردَّ عليهم ابنُ الأثير في المثل السائر رَدًّا مُفْحَمًا<sup>(١)</sup> ، إذ أتى بهجاء كثير لجرير يُشَبَّهُ به أنه نَوَّعَ في معاني هجائه ، وأنه لم يتقِفْ عند هذه المعاني الأربعة التي يعدُّونها . ولم يكتفِ ابنُ الأثير بذلك ، بل ذهب يستعرض معنى واحداً من المعاني الأربعة التي ذكرها ، وهو أن الفرزدق قَتَيْنَ ابْنَ قَتَيْنٍ ، إذ كان بلده صَعَصَعَةَ قِيونَ كثيرة في الجاهلية ، فاستغلَّ ذلك جرير في سبِّه وهجائه به .

ويلاحظ ابنُ الأثير أن هذا المعنى الواحد يُولِّدُه جرير على صور مختلفة ، فتارة يقول له إن أباك شُغِلَ عن المكارم بصناعة القيون على نحو ما نرى في مثل قوله :

أَلْهَيْ أَبَاكَ عَنِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا  
لِي الْكَتَائِفِ وَارْتِفَاعِ الْمِرْجَلِ<sup>(٢)</sup>

وتارة ثانية يقول له إن المِرْجَلِ وَالْقِدْرُ الْمُحَطَّمَيْنِ يَبْكِيَانِ أَبَاهُ فَهُوَ لَا يَبْكِيهِ النَّاسُ وَلَا يَبْكِيهِ الْمَسْجِدُ ، وإنما تبكيه أدوات صناعته كما نرى في قواه :

من حديد أو نحوه تشعب بها الآنية والقدور ،  
والمرجل : القدر .

(١) المثل السائر لابن الأثير (طبع بولاق) ص ٤٩٠ وما بعدها .

(٢) الكتائف : جمع كتيفة ، وهي الضبة

يَبْكِي صَدَّاهُ إِذَا تَصَدَّعَ مِرْجَلُهُ<sup>(١)</sup> أَوْ إِنْ تَشَلَّمَ بِرُمَّةٍ أَعْشَارُ<sup>(٢)</sup>

وتارة ثالثة يقول له : إن أباك أورتك آلة القيون أو آلة الحدادة ، أما أبي فأورثني آلة الشجاعة أو رباط الخيل على شاكلة ما نرى في قوله :

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عُدُّوا أَبَانَ الْمُقْرِفَاتُ مِنَ الْعِرَابِ<sup>(٣)</sup>  
فَأُورِثَكَ الْعَلَاةَ<sup>(٤)</sup> وَأُورِثُونَا رِبَاطَ الْخَيْلِ أَفْنِيَةَ الْقِيَابِ

والحق أن من يستعرض النقائض يستطيع أن يجد في فكرة القين التي سبَّ بها جرير صاحبه أفكاراً كثيرة عُرِضَتْ معارِضَ مختلفة ، فمن ذلك قول جرير<sup>(٥)</sup> :

وَرَقَّعَ بِلَدِّكَ أَكْيَارَهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تُفْسِدِ  
وَأَدْنِ الْعَلَاةَ وَأَدْنِ الْقَدُومَ وَوَسَّعَ لِكَبْرِكَ فِي الْمَقْعَدِ

فهو ينصحه أن يُصْلِحَ ما أفسد الدهر من تركته ، وَيُنْبِئَهُ إلى ما ينبغي أن تكون عليه الْعَلَاةُ وَالْقَدُومُ منه ، أمَّا الْكَبْرُ فيحسن أن يوسع له في مكانه . وفي كل مكان من نقائض جرير نجد هذه الصناعة المدعاة على الفرزدق وآبائه تُعْرَضُ في صور متنوعة ، فتارة يذكر له أن أدواتها دُفِنَتْ مع أبيه في قبره ، من مثل قوله<sup>(٦)</sup> :

وَجِدَ الْكَتِيفُ ذَخِيرَةً فِي قَبْرِهِ وَالكَتْلَبَتَانِ جُمِعْنَ وَالْمِيشَارُ

وتارة يذكر أن صناعته تُلَطِّخُ جسده بروائحها الكريهة ، وتَخْلَعُ على أديمه لونَ السَّوَادِ ، ولذلك نكرهه حَتَّى رَأَى ، وتَسْفِرُ منه ، كما نرى في قوله<sup>(٧)</sup> :

حَتَّى رَأَى أَنْكَرَتِ الْقِيُونَ وَرِيحَهُمْ  
لَمَّا رَأَتْ صَدَّاءَ الْحَدِيدِ بِجِلْدِهِ  
وَالْحُرُّ يَمْنَعُ ضَيْمَهُ الْإِنْكَارُ  
فَاللُّونُ أَوْرَقُ<sup>(٨)</sup> وَالْبَنَانُ قِصَارُ

(١) البرمة الأعشار : القدر المحطم ، والصدى

هنا : بدن الميت .

(٢) النقائض ص ٨٠١ .

(٣) المقرفات : الهجان ، وهن اللاتي يولدن

(٤) النقائض ص ٨٥٢ والديوان ص ٢٠٢ .

من عربية وغير عربي أو العكس . والعراب :

(٥) النقائض ص ٨٥٢ .

الأصليات في العروبة .

(٦) الأورق هنا : الأسود .

و دائماً يلعب جريير بهذه الفكرة في النقائض وما يتصل بها من بيان أثر الحدادة وأدواتها في أنامل الفرزدق ومِرْفَقَيْهِ ، وإنه ليذكر له دائماً الفأس والكبيرَ والكتيْفَةَ والمِيارَ والكتلْبَتَيْنِ ، ويعترف له بأنه يحسن صناعته وخاصة صناعة المسَاحِي والأداهم أو القيود ، يقول فيه (١) :

هو القَيْنُ وابنُ القَيْنِ لاقين مثلهُ لِفَطْحِ (٢) المسَاحِي أولِ جسدِ الأَداهِمِ

ويقف جريير كثيراً عند هذه الفكرة ، فإذا نبأ سيف في يده حين ضرب الرومي تطرَّق له من ذلك يزعم أنه لا يُحسِن الضرب بالسيف ، إنما يُحسِن صناعة الفُشُوس على نحو ما نرى في قوله (٣) :

عَتِيفٌ بِهِزَّ السَّيْفِ قَيْنٌ مُجَاشِعٌ رَفِيقٌ بِأَخْرَاطِ الفُشُوسِ الكَرَازِمِ (٤)

وأكبر الظن أنه قد انضح الآن كيف أن جرييراً كان يُولِّدُ في المعاني والصور . وإن من الممكن على هذا القياس أن يجمع شخص من النقائض كل ما جاء داخل فكرة كبيرة من أفكار الهجاء ، فتتكوَّن عنده دراسة طريقة لمقدرة جريير وصاحبه العقلية على التوليد في المعاني وتوسيع طاقتها ، ففي الظاهر يدور الشاعر حول فكرة عامة واحدة ، وفي الحقيقة يغوص في هذه الفكرة ، ويستخرج كل ما يمكن من أصدافها ولآلئها .

وهذا ونحوه إنما جاء جرييراً وصاحبه من الرقي العقلي الذي أحرزاه على ضوء ما كانا نسمعان من المتناظرين والمتكلمين في مسائل التشريع والإيمان والقدَر ، وما رأياه عندهم من تشويق الأفكار وتوليدتها وسبَر أغوارها ، فذهبا يُطَبِّقان ذلك على فنِّ الهجاء ، فتقلده هذه النقلة الكبيرة إلى مناظرات بديعة في قيس وتسميم وكلْسِب ودارِم وتَغْلِب وما إلى تَغْلِب ، وأخضعنا هذه المناظرات لكل الثروة العقلية التي لَقِفَها من العلماء في أثناء بحثهم ومحاوراتهم ومداوراتهم ، كما أخضعناها لكل الظروف السياسية والاجتماعية التي أُمَّتْ بعصرهما .

(٤) أخرات : جمع خرت ، وهو الثقب في أعلا الفأس يوضع فيه الحشبة التي يمسك منها ، والكرازم : الفشوس ذات الرويس الضخمة .

(١) النقائض ص ٧٦٦ .  
(٢) الفطح : من فطح العود براه وعرضه .  
(٣) النقائض ص ٤١٩ .

وقد أخذ كل منهما يجوب المعاني القديمة ، والمعاني الجديدة التي أحدثها ، ويحاول أن يستتقيد كل مادتها وأن يستخرج منها كل ما يمكن من سخرية بصاحبه وبقييلته . ومن هنا نتبين صعوبة هذا العمل الفني وأنه لم يكن عملاً سهلاً ، بل كان عملاً صعباً معقداً غاية التعقيد ، وفيه هذا المزج بين العناصر القديمة والحديثة التي أكثرنا القول فيها ، وفيه هذا التوليد الواسع للمعاني والصور والأفكار . ولعل في كل هذا الذي قدمناه ما يوضح المنزلة الرفيعة التي كان يتزلفها الفرزدق وجرير في أذهان الناس خاصتهم وعامتهم لهذا العصر ، فقد كان الخلفاء والولاة يُجلّونهما ، وكذلك كان الناس من حولهما ، لهذا التفوق الفني الذي رأوه فيهما ، إذ نهضاً بفنّ المهجاء هذا النهوض ، واستطاعا أن يحققا له استقلالاً واكتمالاً لم يحققه شاعر من قبلهما ولا من بعدهما ، فركباً قصائده هذا التركيب الذي وصفناه ، واستخرجاً فيه كثيراً من الأفكار والمعاني ، فتنوعت صور المهجاء وطرائقه تنوعاً شديداً .

وكان كل من يحاول الوقوف معهما في هذا الميدان يسقط إلى الأبد ، ولم يثبت معهما فيه سوى الأخطل ، ولذلك كان بعده النقادُ ثالثَ الثلاثة الممتازين في العراق بل في العالم العربي كله ، حينئذ .

وقد تمّ هذا العمل وأحكيم عند جرير والفرزدق ، فإن الأخطل لم يعيش كثيراً ، وكان بعيداً عن العراق ، فكان لا يزور البصرة إلا ملاماً . وهو عمل تسمّ واکتمل في هذا الملعب الكبير ، ملعب الميربند ، وتحت أبصار النظارة ، الذين كانوا يؤمونه في هذا العصر .

## مقارنة

رأينا أن الإطار الذي وُضِعَتْ فيه نقائض جرير والفرزدق أكملٌ وأدق من الإطار الذي وُضِعَتْ فيه نقائض جرير والأخطل بحكم طول المسافة التي شغلتها النقائض الأولى ، ثم بحكم أنها أخذت بين الشاعرين شكل مناظرات تامّة .  
ويظهر أن القدماء عرفوا ذلك ، وأحسّوا به ، فمَعَنُوا بنقائض جرير والفرزدق عنايةً تتفوّق على العناية بأختها ، ويتضح ذلك في الديوانين المنشورين للنقائض ، فديوان جرير والفرزدق أكثر انضباطاً من ديوان جرير والأخطل ، وقد اهتم أبو عبيدة به فشرحه شرحاً واسعاً ، عرّض فيه بالتفصيل لأيام العرب ووقائعها في الجاهلية والإسلام .

ومع أن أبا عبيدة اهتم بهذا الديوان ، فنظرةً فيه تدلُّ على أن عناية به كانت محدودة ، إذ لم يُعَنَّ بجَمْعِ النقائض جمعاً تاريخياً دقيقاً نستطيع أن نتيقن فيه زمن النقيضة ، بل نقيضةً متقدّمة تسبق نقيضة متأخّرة ، وأيضاً فإنه ، على ما يظهر ، لم يجمع كل النقائض بين الشاعرين ، وإلا فكيف نفهم أن هذه الكمية القليلة من نقائض جرير والفرزدق هي كل ما قالاه في نحو خمسة وأربعين عاماً .

ومن يترجّع إلى ديوان الشاعرين ، ويقابل القصائد بعضها ببعض يستطيع أن يلاحظ أن هناك قصائد قيلت في الهجاء ، واختصّت بزميله الذي يناقضه ، ولم ترد في نقائض أبي عبيدة ، مع أن مجرد استعراضها يدل على أنها نقيضة ، وقد يمكن أن نجد ردّها أو جوابها في ديوان صاحبه ، وقد لا نجد ، ومع ذلك لا يكفي عدم وجود ردّها عنده للحكم بأنها لم تكن نقيضة ، فمن الممكن أن يكون انصرف عن نقضها ، ومن الممكن أن يكون قد نقضها ولم تصلنا نقيضته .

ونقائض جرير والفرزدق على عيوبها هذه أتمُّ وأكملُ من نقائض جرير والأخطل ، والحقيقة أنها هي التي تعبّر عن هذه المناظرات تعبيراً أبين وأوضح

بحكم قُرْبِ الشاعرين بعضهما من بعض ، بل بحكم جوارهما والتقائهما بأنصارهما يومياً في المِرْبَد .

وليس هذا فحسب ، فنقائض جرير والفرزدق تتميز أيضاً بميزة مهمة ، هي أنها دارت بين شاعرين مسلمين ، اختلطا بالحياة الدينية والعقلية ، التي حاولنا أن نرسم خُطوطها في الصفحات السابقة . وليس معنى ذلك أن الأخطل لم يتأثر بالحضارة الحديثة ، فقد كانت تحت بصره ، فتأثر بها ، ولكن في صورة تخالف الصورة التي تأثر بها جرير والفرزدق ، فلم يكن مثلهما يستمع إلى وُعَاظ البصرة وعلماؤها ومن يتحاورون هناك في النَحْل والمذاهب والمشاكل التشريعية والمسائل العقلية .

وأيضاً فإن العقل العربي كان دائم التطور في هذا العصر ، وقد تُوَفِّي الأخطل قبلهما بنحو عشرين سنة ، فلَحِقا بعده زمناً ارتقى فيه عقل الأمة العربية ضرُوباً من الرقي ، وكان لذلك أثره في عملهما وفي المواد التي كانا يؤلفانه منها . وكما نَمَا عقل الأمة نَمَا عقلهما ، وأخذت طاقتهما الفكرية تتسعُ على مر الزمن وتنهض بأشياء لم تكن تنهض بها العقلية العربية في القديم . ولهذا الأسباب كلها كانت نقائض جرير والفرزدق وخاصة الأخيرة منها ، أكثر تنظيمًا ومهارة .

وإذا أخذنا نَقَارِنِ بين جرير والأخطل في نقائضهما لرى أيهما يتفوق على صاحبه وجدناهما يتهاجيان ، كما قدمنا ، بعناصر قديمة من الأيام والأعجاد الجاهلية وعناصر جديدة يستمدّانها من العصر والسياسة . والأخطل من هذه الناحية لا يتصل بالعناصر الإسلامية مباشرة ، ولكنها تتسرّب إليه ، فهو حين يمدح عبد الملك مثلاً لا يفكر في ملحه بالتقوى وقراءة القرآن الكريم على نحو ما يصنع جرير ، وهو لا يمدُّ أظناب المسألة إلى نَزْعَةِ أمويّة تقابل النَزْعَةَ الشيعيّة على نحو ما صورنا ذلك عند جرير ، ومع هذا تتسرّب إليه بعض العناصر ، فيصف عبد الملك بأنه خليفةُ الله أو يصفه بأنه إمامُ المسلمين ونحو ذلك .

على أن الأخطل إذا قَصَّرَ من حيث العناصر الإسلامية ، لأنها لم تكن مهيةً له ، ولم يكن يفهمها كما كان يفهمها جرير ، فإنه لم يقصّر من حيث

الاتصال بالعصر والظروف السياسية. ويتَّبَعَيْنَ ذلك في نقيضته « خَفَّ القَطِينُ » التي هَلَّلَ لها عبد الملك وكبَّرَ ، فقد سبق أن قلنا إنه ملحه فيها من حيث هو خليفة للمسلمين . ولم يقف عند هذا المعنى طويلا ، لأنه كما قلنا لم يكن يحسّه إحساساً عميقاً . وليس هذا الذي يلفتنا ، وإنما يلفتنا ، أنه ملحه بعناصر جديدة استمدّها من الحياة الحاضرة أو الحياة الحديثة إذ نراه يضيف إلى ذلك مديح عبد الملك في أثناء حرّبه لمصعب بن الزبير . وبذلك استطاع أن يمدح عبد الملك قائداً يحسن تنظيم الجيوش وتنسيقها . فالعقل الدائب الذي شاهدناه عند جرير في توليد المعاني وتجديدها نجده عند الأنخل ، وإن كنا نلاحظ أن عقل جرير كان أكثر توليداً .

وكان الأنخل يحاول دائماً أن يُضَيِّقَ على جرير بانتصاره لقيس ، فيذكر خروجها على طاعة الأمويين وانتقاضها عليهم ، ويُسَيِّدُ في الوقت نفسه بتغليب وموقفها من الخلافة ونُصَرَّتْها لبني أمية ، فيضطرب جرير حين يحاول الردّ عليه . وكان جرير يتصدّى له من جانب آخر يحاول أن يَشُدَّ على خناقه منه ، وهو جانب مسيحيته ، وقد لعب هذا الجانب دوراً بعيداً في تقاض جرير مع الأنخل ، وكان هو نفسه يعترف به ، فالرواة يحدثون عنه أنه قال : « أُعِنْتُ على الأنخل بكفره <sup>(١)</sup> » وكان معاصروه يشعرون بذلك ، فقد روى الرواة عن عمر ابن عبد العزيز أنه قال : « إن الأنخل ضَيَّقَ عليه كُفْرُهُ القَوْلَ ، وإن جريراً وَسَّعَ عليه إسلامُهُ قولُهُ » <sup>(٢)</sup> .

ولا نستطيع في الواقع أن نزعم لأحدهما تفوقاً تاماً على صاحبه في نقائضه ، لأن المسألة كانت تُرْهَنَ بالظروف ، وفي العادة يتفوق صاحب النقيضة الأولى . وقد تفوق الأنخل على جرير في نقيضته « خف القطين » تفوقاً ظاهراً ، لأنه كان البادئ ، ولأنه كان يملك زمام الموقف ، فاستغلَّ خصومة قيس لبني أمية وعلى رأسهم عبد الملك استغلالاً واسعاً . وعلى العكس من ذلك تجنّب جرير في رده عليه موقف قيس ، ولم يستطع أن يمدح عبد الملك على نحو ما صنع الأنخل . فالظروف

السياسية التي صاحبت قيسًا كانت أحيانًا تُحدثُ اضطرابًا في جرير وفي نفسه ، وخاصة أنه كان يريد الاتصال ببني أمية ، وأن يكون شاعرهم الأول ، فإذا تحدث الأخطل عن عيصان قيس أحس كأنما ألقمه حَجَرًا ، فيتعثر في أثناء رده ويضطرب فنونًا من التعثر والاضطراب .

وكذلك كان الفرزدق معه في هجائه يستغل عيصان قيس وخروجها على الطاعة ، وكان ذلك يُحدثُ أزمةً محققةً في نفسية جرير ، وانضم إلى ذلك أنه كان من أسرة متواضعة بينما كان الفرزدق من أسرة أرستقراطية . ومن هنا كان يشعر بالصغار أمامه ، وعلى العكس كان الفرزدق يشعر بغير قليل من الكبرياء والاستعلاء والغطرسة . وأكبر الظن أن هذين العاملين هما اللذان أتاحا للفرزدق أن يتقدم في نقائضه على جرير ، وربما كان من عوامل ذلك أيضًا أن جريرًا لم يكن من قيس نفسها فدفاعه عنها لم يكن صادراً من قلبه على نحو ما كان يصدر دفاع الفرزدق عن تميم . على كل حال من يقرأ نقائض الفرزدق وجرير يحس تفوق الفرزدق على صاحبه ، ولعل ذلك ما جعل جريرًا يعمد إلى الهجاء الشخصي أكثر من صاحبه فهو يُكثِرُ من السباب والشتائم ، بينما يتوقّر الفرزدق ويرفَع ، عن أن ينحدر معه إلى السفح الذي يهوى إليه .

وينبغي أن لا نفهم من ذلك أن جريرًا يتخلف تخلفًا عامًا في شعره عن صاحبه ، فإن من يترك النقائض إلى ديوانيهما ، ويبحثهما فيهما ، ويوازن بين شاعريتهما ، يجد جريرًا في ديوانه أشعر من صاحبه . وكأن جريرًا كان يسقط أو يضعف أمام الفرزدق في المناظرات لعوامل نفسية طارئة ، فإذا فصل عن هذه العوامل وأصبح حرًا استعاد كل مقدرته ، وأصبح أشعر من صاحبه .

وقد حاول القدماء كثيرًا أن يحكموا بينهما ، ووسّعوا الحكومة إلى الأخطل ، فذهبوا إلى أن الفرزدق يتفوق في الفخر<sup>(١)</sup> ، بينما يتفوق الأخطل في المديح ونعت الخمر<sup>(٢)</sup> ، أما جرير فأعطوه السبق في الهجاء والغزل والرثاء<sup>(٣)</sup> .

(٣) ابن سلام ص ٨٧ والأغانى ١٠/٨  
وكذلك ٣٨/٨ .

(١) ابن سلام ص ٨٧ .  
(٢) ابن سلام ص ١١٣ والأغانى ٣٤/٨ ،  
٢٨٦/٨ .

وهذه الأحكام تحتاج فضلاً من البحث والدراسة ، أما أن الأخطل يتفوق في نعت الخمر ، فإنه مما لا ريب فيه ، لا لأن جريراً والفرزدق كانا ينعتهما فلا يوفقان ، بل لأنهما لم يحاولا هذا النعت ، فقد منعهما الإسلام منه ، وإن لم يتمتع شعراء مسلمون آخرون من ذلك<sup>(١)</sup> . أما هما فإنهما نفرا منه ، فلم يقبلا عليه ، ولا اشتغلا به ، على عكس الأخطل فإنه كان مسيحياً ، وكان صبياً بالخمر ، فأكثر من وصفها ونعتها ، وأجاد في ذلك على نحو ما نرى في قوله<sup>(٢)</sup> :

صَرِيحٌ مُدَّامٌ يَرْفَعُ الشَّرْبَ رَأْسَهُ      لِيَحْيَا وَقَدْ مَاتَتْ عَظَامٌ وَمُفَصِّلٌ  
تُهَادِيهِ أَحْيَانًا وَحِينًا نَجْرُهُ      وَمَا كَادَ إِلَّا بِالْحَشَاشَةِ يَعْقِلُ

على كل حال يتقدم الأخطل صاحبيه في نعت الخمر ، لا لأنهما أجريا معه فيه ، وسبقهما ، ولكن لأنه انفرد به . أما في المديح ، فقد يكون ذلك صحيحاً إلى حد ، إذ كان الأخطل يجود في المديح ، وكان ما يزال ينوع في معانيه على ماتقدم في غير هذا الموضع . ولا شك في أنه كان يتقدم في هذا الفن الفرزدق لأن نفسية الفرزدق كانت منطوية على التمرد ، كما قدمنا ، فهو لا يعجب إلا بقومه ، وهو يثور على كل من عداهم . لذلك كان غير مهيباً من الوجهة النفسية للنفوق في المديح . وإذن فالمقارنة في المديح ينبغي أن تكون بين الأخطل وجرير ، وإذا ذهبنا نقارن بينهما وجدنا الأخطل ينسوع في مديحه ، ولكن تنوعه ينصب في أكثره على الإفادة من العناصر القديمة ، فهو يمدح بالخصال المعروفة عن العرب من كرم وشجاعة ووفاء ومروءة وحلم وصبر على المكروه ، ويقف في أكثر مديحه عند ذلك . أما جرير فإنه ينفيد في مديحه من العناصر الإسلامية الجديدة ، فيخلع على الخلفاء والولاة صفات دينية كثيرة من إقامة العدل بين الناس ومن عصيان داعي الهوى والاهتداء بالكتاب والسنة وإقامة الفرائض والحدود . وقد تحول الجزء الأكبر من مديحه في الخلفاء إلى دفاع حار عن دعوة الأمويين وتفضيل حيزهم على الحزب الشيعي وغيره من الأحزاب ، وذاهب يسبغ عليهم كل ما يسبغه الشيعة على

(٢) الشعر والشعراء ص ٣١٠ .

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة ابن أرتاة في الأغاني ٢/٢٤٢ .

أثمتهم من خصال وصفات .

ومعنى ذلك أن تنوع الأخطل في المديح ينصبُّ في أغلبه على الإفادة من المعاني الجاهلية القديمة ، وكان القدماء أنفسهم يشعرون بذلك ، فأبو عبيدة يقول :  
إن الأخطل أشبه الثلاثة بالجاهلية<sup>(١)</sup> .

فإذا نظرنا إلى معاني المديح وصلتها بالحديد الإسلامى قدمنا جريراً على الأخطل ،  
وإذا نظرنا إلى الصياغة وجزالتها ومحاولة استفاد المعانى والصور القديمة والتوليد فيها  
قدمنا الأخطل على صاحبه ، كما حكم بذلك القدماء .

أما الفرزدق وما يقولون من سبِّه لصاحبيه في فن الفخر فصحيحٌ إلى أبعد  
حد ، إذ كان من أسرة ذات شرف وسيادة ، وكانت نفسه تمتلئ بمكانة أسرته  
امتلاء لا نهاية له . ولم يكن الأخطل من أسرة تشبه أسرته ، وكان جرير من أسرة  
متواضعة ، فلم تكن لكل منهما النفسية العنيفة التي اشتمل عليها الفرزدق ، وما  
انطوى فيها من شعور بالعزة لا يكاد يُحدِّد ، وشعور بالكرامة لا يكاد ينتهي ،  
فلم يستطيعا أن يحلِّقا معه في آفاق الفخر التي خلق فيها ، إذ كانت أجنحتهما من  
الضعف بحيث لا تستطيع أن تبلغ شأوه ، وارجع إلى شعره فستجد قطعاً كثيرة  
من الفخر تتألق فيه تألقاً ، من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

لنا العزةُ الغلباءُ والعددُ الذى عليه إذا عدَّ الحصى يُحَلِّفُ  
ولا عزَّ إلا عزُّنا قاهرٌ لهُ ويسألنا النصفَ الدليلُ فيُنصِّفُ  
ترى الناسَ ماسِرنا يسيرون خَلْفَنَا وإن نحن أومأنا إلى الناسِ وقَّفوا

ومثل هذه القطعة هو الذى كان يرفعه على جرير في نقائضه ، إذ كان يشعر  
ضده بغطرسة شديدة ، فيرميه بحقائق آبائه وأجداد عشيرته ، وكأنها سهام يُصوبها  
إلى نحره ، واستمع إليه يقول له في إحدى نقائضه واصفاً قومه<sup>(٣)</sup> :

الأكثرُونَ إذا يُعدُّ حصاهمُ والأكرمُونَ إذا يُعدُّ الأوَّلُ  
حُللُ الملوكِ لباسنا في أهلبنا والسابغاتِ إلى الوغى ننتسِرُ بِلُ

(٣) النقائض ص ١٨٧ .

(١) أغاني ٢٩٢/٨ .  
(٢) النقائض ص ٥٧١ .

أَحْلَامُنَا تَزِنُ الْجِبَالَ رَزَايَةً      وَتَخَالِنَا جِنًّا إِذَا مَا نَتَجَهَّلُ  
فَادْفَعْ بِكَفِّكَ إِنْ أُرِدْتَ بِنَاءَ نَنَا      نَهْلَانِ ذَا الْهَضْبَاتِ هَلْ يَتَحَلَّحَلُ (١)

وَيُسْرِفُ الْفَرَزْدَقُ فِي مِثْلِ هَذَا الْفَخْرِ ، وَيَمْلَأُ شِعْرَهُ وَنِقَائِضَهُ ضَجِيجًا وَصِيَاحًا  
بِآبَائِهِ وَعَشِيرَتِهِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ . وَمَنْ أَجَلْ ذَلِكَ كَانَ يَتَفَوَّقُ تَفَوُّقًا ظَاهِرًا عَلَى  
صَاحِبِيهِ فِي هَذَا الْفَنِّ مِنْ فَنُونِ الشَّعْرِ .

وَإِذَا تَرَكْنَا فَنَ الْفَخْرِ إِلَى فَنِّ الْمَهْجَاءِ ، أَوْ قُلْنَا إِلَى قِطْعِ الْمَهْجَاءِ فِي النِّقَائِضِ  
وَقَارَنَّا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ وَجَدْنَا جَرِيرًا أَشَدَّ عُنْفًا مِنْ صَاحِبِيهِ فِيهَا ، فَهُوَ حِينَ يَصِلُ إِلَيْهَا  
يَشْبَهُ الطَّائِرَ الْجَارِحَ حِينَ يَنْقُضُ عَلَى فَرِيستِهِ ، يَرِيدُ أَنْ لَا يُبْقِيَ فِيهَا شَيْئًا ، وَلَعَلَّ  
ذَلِكَ مَا جَعَلَهُ يَلْجَأُ فِي أَحْوَالٍ كَثِيرَةٍ إِلَى هَتِّكَ الْحُرُمَاتِ وَالْأَعْرَاضِ كَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ  
يُضْرَقَ خِصْمَهُ تَمْرِيْقًا .

وَلَمْ يَكُنِ الْأَخْطَلُ وَالْفَرَزْدَقُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ مِنَ الْعُنْفِ ، وَارْجِعْ إِلَى نِقَائِضِ  
الْأَخْطَلِ فَسَتَجِدُهُ يَسْتَمِرُّ لَهُ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنْ شَبِيهِهِ وَوَقَارِهِ ، وَكَذَلِكَ الْفَرَزْدَقُ حِينَ  
يُنَاقِضُ أَوْ يَهْجُو يَسْتَمِرُّ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْإِعْتِدَادِ بِنَفْسِهِ وَبِكِرَامَتِهِ . وَمَنْ هُنَا كَانَ  
لَا يَعْمَدَانِ إِلَى السَّبِّ وَالْقَتْدِ عَلَى نَحْوِ مَا يَعْمَدُ جَرِيرٌ ، فَهَمَا يَسْتَحْتَشِمَانِ ، أَمَا  
جَرِيرٌ فَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ حِشْمَةً وَلَا مَا يَشْبَهُ الْحِشْمَةَ ، بَلْ كَانَ يَنْصَبُ أَنْصَابًا عَلَى  
خِصْمِهِ ، يَرِيدُ أَنْ يَطْعَنَهُ الطَّعْنَةَ الْمُصْمِيَّةَ .

وَلَعَلْنَا نَفْهَمُ الْآنَ مَا يَقُولُهُ الرَّوَاةُ مِنْ أَنَّ الْفَرَزْدَقَ كَانَ يُنْتَقَعُ لَوْ أَنَّ وَجْهَهُ حِينَ  
يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ : إِنْ جَرِيرًا أَنْشُدَ الْيَوْمَ فِي الْمَرْبَدِ قَصِيدَةَ (٢) ، إِذْ كَانَ يَنْتَظِرُ دَائِمًا  
أَنْ يَقْتَدِفَهُ جَرِيرٌ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِهِ أَوْ نَقِيضَتِهِ بِحِجْرٍ غَلِيظٍ مِنْ حِجَارَتِهِ  
يَسْجُرُّهُ جُرْحًا بَلِيغًا .

وَإِذَنْ فَجَرِيرٌ كَانَ يَتَفَوَّقُ عَلَى صَاحِبِيهِ فِي الْمَهْجَاءِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ  
كَانَ يَتَفَوَّقُ عَلَيْهِمَا فِي النِّقَائِضِ ، فَالنِّقَائِضُ تَحْتَوِي مَوْضُوعَاتٍ مُخْتَلِفَةً . حَقًّا هُوَ  
وَالْأَخْطَلُ كَانَا فَرَسِي رَهَانَ ، وَكَانَ يَتَفَوَّقُ مِنْهُمَا فِي الْعَادَةِ مِنْ يَكُونُ صَاحِبَ  
النَّقِيضَةِ الْأُولَى لِأَنَّهُ حَرٌّ ، وَلِأَنَّهُ لَا يَتَّقِدُ بِمَعَانٍ خَاصَّةٍ وَلَا بِأَوْزَانٍ وَقَوَافٍ خَاصَّةٍ . أَمَا

(١) نَهْلَان: جبل. يتحلل: يزول ويتحرك . (٢) ابن سلام ص ٨٦ .

مع الفرزدق فالمسألة تختلف ، لأن الفرزدق يتفوق عليه في مجموع النقيضة بفضل هذا الشعور العميق بأبائه ، وما كان يحسه تلقاءه من تَسَامٍ وكبرياء . فجرير مع إقذاع هجائه ومرارته وتفوقه في هذه المارة لا يتقدم الفرزدق في مجموع النقيضة ، لأن نفسية الفرزدق كانت أقوى من نفسيته .

وشأن جرير في الغزل شأنه في الهجاء كان يسبق صاحبيه سبقاً لا يدع مجالاً للشك والريب ، فقد شهد به معاصروه وشهد به نقاد العصور التالية . ومعنى ذلك أننا إذا فَرَّقْنَا النقيضة قِطْعاً وجدنا جريراً يسبق صاحبيه في الهجاء والغزل أما إذا جمعناها جمعاً ، فإن الفرزدق هو السابق المُجَلِّي .

على كل حال كان جرير يتفوق في الغزل كما كان يتفوق في الهجاء ويلاحظ ذلك في وضوح مَنْ يرجع إلى ديوانه وديوانتي صاحبيه . وربما كان تَخَلُّفُ الأخطل في الغزل راجعاً إلى أنه كان متكلفاً في شعره ، يسعى به إلى الصورة التي نعهدها عند شعراء الجاهلية من أمثال زُهَيْرِ والنَّابِغَةِ .

ومن أهم ما يحتاج إليه الغزل أن يكون طبيعياً صادراً عن شعور حقيقي ، لا عن تكلف وافتعال ، ولهذا لم يستطع الأخطل أن يتفوق في هذا الفن من فنون الشعر العربي لأنه لم يُحَدِّثْنا فيه حديث العاطفة الطبيعية ، وإنما حَدِّثْنا فيه حديث العاطفة الصناعية ، إذ لم يكن يُعَبِّرُ عن شيء حقيقي يشعر به وإنما كان يعبر عن الصناعة التقليدية ، أما جرير فكان على نقيضه يعتمد على مشاعره وإحساساته في غزله ، وينطلق في التعبير عن عواطفه ووجداناته ، ومن هنا كنا نُحِسُّ عند الأخطل بالحناف والحدود ، بينما نحس عند جرير أنه يتحوّل إلى شعور وعواطف خالصة . وحفظ الفرزدق في هذا الفن فن الغزل وما ينطوي فيه من نسيب وتشبيب ليس أسعد كثيراً من حفظ الأخطل . حقاً إنه لم يكن يتكلف تكلفه ، ولم يكن يُفَنِّي شخصيته في القدمات من أمثال زهير والنابغة على نحو ما أفناها الأخطل ، ومع ذلك فإنه لم ينجح في هذا الفن ، على الرغم من أنه كان فاجراً مستهتراً ، بل كان زيراً للنساء .

وفي رأينا أن الفرزدق لم ينجح في الغزل ، لأن نفسه كانت غليظة ولم تكن رقيقة ، فقد كانت خشنة جافة ، لم تُطَبِّعْ على شيء من اللين ، وإنما طُبِّعَتْ

على التمرد والقسوة وعدم الخضوع والاستكانة ، فهي نفس — في قرارها — جاهلية ، لم تنهذب ، ولم تلتن ، ولم تصف .

والغزل لا ينجح فيه إلا صاحب النفس اللينة الصافية ، ولذلك تقدمه جرير إذ كانت نفسه لينة حقاً ، صافية حقاً ، وقد جاءه ذلك من أنه كان مُتَسَدِّينًا يذوب في الإسلام ، فصفتى الإسلام جوهر نفسه ، وأعدّه لينبغ في هذا الفن ، ويتفوق على زميله الذي كان يرتبط بالعبادات والطباع الجاهلية .

واتفق مع ذلك أن جريراً كان من أسرة فقيرة ، بينما كان الفرزدق من أسرة شريفة ، فكان ذلك سبباً لأن يشعر جرير في أعماقه بشيء من الحزن ، وخاصة أن الفرزدق دائم التمدح عليه بآبائه وأمجأدهم في الجاهلية .

ولا نشك في أن هذا الحزن الذي كان يتسرب إلى قلبه كان ذا أثر بعيد في صفاء نفسه وإرهافها وتهيتها لأن يتفوق في الغزل والتشبيب ، لأن الحزن من عاداته أن يتجلدو النفس ويتجلدو ما يصدر عنها ، وخاصة إذا كان شكوى من حبيب .

وكل من يقرأ غزل جرير ومقدماته لنقائضه وقصائده يشعر أنه يقرأ لنفسٍ غير مبتهجة ، فليس له ما يبتهج به في الآباء ، وإنما له ما يؤذيه ، وما يشعر معه بالقصور والحزن . ولعل ذلك ما جعله يطيل مقدمات نقائضه مع الفرزدق ، فإنه كان يُودع فيها إحساساً عميقاً بحزنه ، وينفَس فيها عن شعور النقص الذي يشعر به إزاء خصمه . وعلى العكس كان الفرزدق يُقَصِّرُ هذه المقدمات ، وكان في بعض الأحيان لا يأتي بها ، بل يهجم مباشرة على فخره ، وتعدّاد مناقب آبائه .

فالنَّفْسِيَّتَانِ كَانَتَا مَخْتَلِفَتَيْنِ ، نَفْسِيَّةٌ تَفَنَّى فِي الْأَمْجَادِ وَالْمَنَاقِبِ الْقَدِيمَةِ ، وَنَفْسِيَّةٌ تَأْسَى وَتَحْزَنُ ، لِأَنَّهَا لَا تَجِدُ لَهَا أَمْجَاداً وَمَنَاقِبَ تَعْتَزُّ بِهَا . وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ تَرْتَبِطُ أَوْلَاهُمَا بِالْعِبَادَاتِ وَالطَّبَاعِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَهِيَ نَفْسٌ غَلِيظَةٌ ، بَيْنَمَا تَرْتَبِطُ الثَّانِيَةُ بِالْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ، فَتَصْفِيهَا ، وَتَهْدِيهَا ، وَتَسْمُو بِهَا ضَرْباً مِنَ السُّمُوِّ . وَكُلُّ ذَلِكَ هَيَّأَ جَرِيرًا لِأَنَّهُ يَتَقَدَّمُ صَاحِبُهُ فِي هَذَا الْفَنِّ الرَّقِيقِ مِنْ فَنُونِ الشُّعْرِ ، وَاسْتَمَعَ إِلَى قَوْلِهِ فِي بَعْضِ غَزَلِهِ (١) :

(١) أغاني ٥٩/٨ والديوان ص ٥٧٨ .

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبُكْبِكَ غَادَرُوا      وَشَلَّاءَ بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا  
غِيَّضْنَ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي      مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَىٰ وَلَقِينَا

وواضح ما في هذين البيتين من بكاء ودموع ، وهما يصدران من نفس يشوبها غير قليل من الحزن ، واستمع إليه يقول مرة ثانية<sup>(١)</sup> :

إِنَّ الْعِيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ      قَتَلَتْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنِ قَتْلَانَا  
يَبْصُرَ عَنْ ذَا اللَّبْحِ حَتَّى لَا حَرَآكَ بِهِ      وَهَنْ أضعفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَآنَا  
أَتَبَعْتَهُمْ مُقَلَّةً إِنْسَانُهَا غَرِقٌ      هَلْ مَا تَرَى تَارِكٌ لِلْعَيْنِ إِنْسَانَا

فإنك ترى غزله يسجيش بالعاطفة ، ويمسح عليه حُزُنٌ غير قليل . وهكذا جرير دائماً في غزله يشكو ، ويرقُ ويسكين هذه الرقة واللين .

ولم يكن الفرزدق مهيباً من الوجهة النفسية ليصدر عنه مثل هذا الغزل الرقيق الصافي ، ولعل من الطريف أنه كان يعترف بالجرير بسبقه في هذا الفن ، وكان يقول : « ما كان أحوجته مع عفافه إلى صلابه شعري ، وأحوجتني مع شهواتي إلى رقة شعره »<sup>(٢)</sup> .

فالفرزدق يعترف بالجرير برقة شعره وغزله ، وأنه لا يستطيع أن يحقق ذلك لنفسه ، فشعره صلْبٌ ، فيه غِلَظٌ وخشونة . ومن هنا كان لا يستطيع أن ينجح في الغزل الذي يحتاج دِقَّةً في الشعور ، ورقة في الإحساس ، واستمع إلى جرير يقول<sup>(٣)</sup> :

بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبُهُ عَزِيزٌ      عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَمَامٌ  
وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ لَا أَرَاهُ      وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ

فإنك تشعر حقاً بهذه الرقة التي يشير إليها الفرزدق ، وهي رقة كان عفافه أحد أسبابها لا كما ظنَّ الفرزدق أن العفاف يقتضي الخشونة ، بل هو يحدث من الطُّهْرِ في النفس والتسامي ما يجعلها تصفو ، وتلين ، وتتحول إحساساً وشعوراً خالصين . على كل حال كانت نفس جرير نفساً لينة رقيقة ، وكانت نفس الفرزدق

(٣) الديوان ص ٥١٢ .

(١) أغاني ٣٩/٨ .

(٢) أغاني ١٢/٨ .

نفساً خشنة غليظة ، فأتاح ذلك لجرير أن يبّسّه ويتفوق عليه في هذا الفن من الغزل وما يندمج فيه من نسيب وتشبيب .

وكما يتفوق جرير على صاحبيه تفوقاً واضحاً في الهجاء والغزل يتفوق عليهما أيضاً في الرثاء ، لأن الرثاء كالغزل يحتاج وفرةً في الشعور وصدقاً في الإحساس ، فإذا اتفق أنه يصدر من نفس محزونة كان ذلك عاملاً آخر في إحسانه والبراعة فيه . وقد قلنا إن الأخطل كان متكلفاً في شعره ، لا يصدر فيه عن طبعٍ ولا ما يشبه الطبع ، فطبيعي أن لا يتفوق في هذا الفن ، وكذلك كان الفرزدق غليظاً جافياً ، فيه صلابة ، وفيه خشونة ، فكان من الطبيعي أيضاً أن لا يتفوق فيه ، إنما يتفوق فيه جرير ، الذي رقت مشاعره الإسلام ، والذي طبع بؤس أسرته نفسه بطابع حزين ، واستمع إليه يقول في رثاء زوجه أم حنّرة<sup>(١)</sup> :

لولا الحياءُ لعادني استعمارُ	ولزرتُ قَبْرَكَ والحبيبُ يزارُ
ولَهتْ قلبي إذ علّمتني كَبْرَةَ	وذوّوالتَّمَامِ من بَنِيكَ صغارُ
ولقد أراك كُسِيتِ أجملَ منظرِ	ومعَ الجمالِ سَكِينَةُ ووقارِ
صَلَّى الملائكةُ الذينَ تُخَيَّرُوا	والصالحونَ عليكِ والأبرارُ
لا يَلْبَثُ القُرْناءُ أن يتفرّقوا	ليلٌ يَكُرُّ عليهمُ ونهارُ

وهذا رثاء يقيض أسى وحزناً ولوعة وحسرة على زوجه أم حنّرة ، التي كان يتغزل فيها غزلاً عذباً ، فلما توفيت أخذ يرثيها رثاءً حاراً ، ولعل رثاءه في ابنة سوادة أشدّ حرارةً ، فقد كان يبكيه بكاءً مرّاً ، واسمعه يقول فيه<sup>(٢)</sup> :

قالوا نصيبكَ من أجْرٍ فقلتُ لهم	كيف العزّاءُ وقد فارقتُ أشْبالِي
ودعّيتني حينَ كَفَّ الدهرُ من بصرِي	وحين صيرتُ كعَظْمِ الرّمّةِ البالي

فنفسه تتساقط أنفساً على فلذّة كبده وسوْبنداء فؤاده ، فهو ينوحُ عليه نواحاً لا ينقطع ، ويعزّيه الناس ، ويذكرونه ثواب الصبر ، فلا يزيد ذلك إلا نواحاً وحزناً .

(٢) الديوان ص ٤٣٠ والأغاني ٣/٢٢٠ .

(١) الديوان ص ١٩٩ .

ومن يقرأ ديوان الفرزدق لا يستطيع أن يتقّف على مثل هذا الرثاء، لأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن ولم تكن مهية لأن تحزن، فهي نفس غليظة جافة، ويتندّر الرواة عليه، فيقولون إنه حين توفيت زوجته النوّار لم يجد النّاحة شعراً له ينوحون به عليها، فباحوا بشعر جرير السابق في رثاء زوجته (١).

وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا الآن ما يميز به كل شاعر من الأقطاب الثلاثة، فجرير يتفوّق في المهجاء والغزل والرثاء، بينما يتفوق الفرزدق في الفخر والنقائض، أما الأخطل فإنه يتفوق في الحمر، كما يتفوق في المديح إن لاحظنا جزالة الأسلوب ومثاقفه، أما إن لاحظنا المعاني والملاءمة فيها بين العناصر الجاهلية القديمة والعناصر الإسلامية الحديثة فإن جريراً يتقدمه، ولا يبقى له إلا نعت الحمر.

والحق أن الأخطل يتخلّف عن جرير والفرزدق جميعاً، أما هما فيمتاز من بينهما الفرزدق بأبنية شائعة في الفخر، وقوة باذخة في الشعر، بحيث يمكن أن نسميه شاعر القوة، بينما يمتاز جرير بالعدوّة والأسلوب الرشيق والمرسوق الصافية. وهذا الحكم الذي نحكم به على الأخطل وما نزعناه من تخلّفه عن صاحبيه سبقنا إليه بشّار بن بُرد زعيم المجددين من الشعراء في العصر العباسي، فقد روى ابن سلام أنه سأله عن الثلاثة فقال: «لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له، وأفرطت فيه، فقال له ابن سلام: فجرير والفرزدق؟ فقال بشار: كان جرير يُحسّن ضرورياً من الشعر لا يُحسّنُها الفرزدق، وفضل جريراً عليه» (٢).

ونحن نتفق مع بشار في هذا الحكم، فالأخطل يتخلّف عن جرير والفرزدق، وكذلك جرير يتقدم الفرزدق بكثرة ما أحسن فيه من فنون الشعر، فهو يتقدمه في المهجاء والغزل والرثاء، وإن كان ذلك لا يمنع الفرزدق من تقدمه عليه في النقائض والفخر.

على أن حكمتنا على الأخطل بالتخلّف عن صاحبيه ينبغي أن لا يُخفى عن أعيننا جانباً عنده، هو جانب الصقل في الصياغة وتنسيق العبارة، وذلك أنه كان من عبّيد الشعر الذين يبالغون في تنقيحه ويبلّغون في نخله وتهذيبه. ومن

(٢) ابن سلام ص ٨٦.

(١) المشح للمرزباني ص ١١٦.

هنا كانت أساليبه أكثر استواء من أساليب صاحبيه ، وبيالغ الرواة فيما كان يتخذه لذلك ، فيقولون إنه كان ينظم تسعين بيتاً ، ثم يختار منها ثلاثين ، فيُذِّعُ بِهَا<sup>(١)</sup> .  
فقصائده مُتَّخِذَةٌ ، كل قصيدة انْتُخِبَتْ من أضعافها .

وليس من ريب في أن هذا يدلُّ على جُهْدٍ كان يَصْطَلِعُ به الأخطل ، في صُنْعِ شعره ، فهو لم يكن ممن يفهمون الشعر على أنه شيء يصدر عن الفطرة ، بل كان يفهمه على أنه يصدر عن الخبرة والجهد والتثقيف والتنقيح ، فهو ممن يعمِّمُون شعرهم عملاً ويتكلفونه تكلفاً ، وما يزالون يُتَّقِنُونَ فيه ، ويجوِّدونه حتى يُخْرِجُوهُ مُسْتَوِيًّا .

والأخطل من هذه الناحية يشبه زهيراً صاحب الحـولِـيَّاتِ ، وقد قالوا إنه صنَّعَ إحدى قصائده في حـولٍ كامل<sup>(٢)</sup> ، فهو من هذه المدرسة التي كانت تَمَسُّوْهُ على نفسها في صنع شعرها ، فما تزال تَثَقِّفُ في القصيدة ، وتَصْقُلُ ، وتجوِّدُ . وتَفْخِصُ ، وتَسْتَحِجُّ ، وتُجَرِّبُ ، حتى تُخْرِجَهَا نموذجاً تاماً . ولعل ذلك ما جعل اللغويين يلاحظون أنه أكثر الثلاثة عمدَ قصائد طوال جيباد ، ليس فيها فُحْشٌ ولا سَقَطٌ<sup>(٣)</sup> . فأساليبه في أشعاره أساليب منتخاة ، لا نُبُوٌّ فيها ولا شدوذ .

وكل ذلك يَعْزِضُهُ الأخطل في موسيقى ضخمة فيها رَزَانَةٌ ووَاقَارٌ ، وفيها هذا الجـو الذي يصلنا بالماضي ، ولذلك كانت موسيقاه شديدة الصلة بالموسيقى القديمة في العصر الجاهلي . أما جرير فإننا لا نقرؤه حتى نشعر أن موسيقاه جديدة بحكم اندماجه في الإسلام وحفظه للقرآن الكريم وتجاوُّبه مع عصره من جميع النواحي .

وجرير في ذلك يتقدِّم الفرزدق كما يتقدم الأخطل ، فقد كان أكثر من الفرزدق استجابة للإسلام وطواعية له وانقياداً ، وكان كذلك أكثر منه قُرْباً إلى الحياة الحديثة . لذلك كانت موسيقاه أقرب إلى معاصريه منه ، لما امتازت به من لين وصفاء ومرونة . وكان الفرزدق نفسه يشعر بذلك ، فيقول : ما أشرَّد قافيتيه<sup>(٤)</sup> ؛

(٣) أغاني ٢١١/٨ .

(٤) أغاني ١١/٨ .

(١) أغاني ٢٨٤/٨ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢٨٧/٨ وما بعدها .

وكان الأخطل يشعر شعوره ، فقد روى الرواة أنه اجتمع يوماً مع الفرزدق فقال له :  
« إن جريراً أوتي من سبب الشعر ما لم نُؤتته ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال  
أهجى منه ، قلت :

قوم إذا استنبح الأضياف ككلبهم  
قالوا لأهم بؤلى على النار

فلم يروه إلا حكماً أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبى إذا تنحنح للقرى  
حكك استه وتمثل الأمثالا

فلم تبق سقاة ولا أمثالها إلا روه<sup>(١)</sup> . ففضيلاً له أنه أسير شعراً منها .  
وهذا نفسه كان يحسه معاصروهم ومن جاءوا بعدهم ، فقد سأل معاوية بن  
أبي عمرو بن العلاء ابن سلام : « أى البيتين عنده أجود : قول جرير :

ألتستم خير من ركب المطايا  
وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل :

شمس العداة حتى يستفاد لهم  
وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

فقال ابن سلام : بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن ،  
فقال معاوية لابن سلام : صدقت ، وهكذا كانا في أنفسهما عند الخاصة والعامة<sup>(٢)</sup> .

فشعر جرير كان أكثر سيورة وانتشاراً من شعر صاحبيه بشهادتهما وشهادة  
النقاد لسبب بسيط ، وهو أنه أقرب إلى نفوس معاصريه ، إذ اندمج في الحياة  
الحديثة بأكثر مما اندمج زميلاه ، فكان طبيعياً أن تصبح أساليبه أكثر ذريعاً ،  
وأكثر ألفة للناس . أما الأخطل فكان محافظاً يتمسك بالقديم وأساليبه ، وأما  
الفرزدق فكانت فيه غلظة وخشونة ، وكانت في أساليبه صلابة غير مألوفة ، فكان  
ذلك لا يتيح لهما أن تنتشر أشعارهما وتطير انتشار شعر جرير وطيرانه .

وكل من يقرأ الفرزدق يشعر أن موسيقاه تمتاز بكثير من الشذوذ والالتواء في  
أساليبها ، وهو التواء وشذوذ أتياه من تمرده الذى اشتملت عليه نفسيته ، وهل منا

مَنْ لَا يَحْفَظُ بَيْتَهُ الْمَلْتَوَى الْمُعَقَّدَ فِي مَدِيحِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هِشَامِ الْخَزَوِيِّ خَالَ هِشَامِ  
ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، إِذْ يَقُولُ فِيهِ<sup>(١)</sup> :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُو أُمَّهِ حَتَّى أَبُوهُ يُقَسِّرِبُهُ

فقد خالف في ترتيب ألفاظ البيت حتى أصبح لا يكاد يفهمهم مع أن الفكرة التي  
يحتويها بسيطة ، وهي تظهر من ترتيب الألفاظ على وضعها السليم هكذا « وما  
مثله ( المملوح ) في الناس حتى يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه » يريد إلا ملكاً هو  
هشام بن عبد الملك الذي يشترك معه في الجلد فهو ابن أخته .

وكما كان يأتي بهذا الالتواء وما يشبهه في أساليب شعره كان يأتي أيضاً بشواذ  
نحوية ، يخالف فيها الطرق المألوفة في الصياغة ، من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَابُنَ مَرَّوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْرَفًا<sup>(٣)</sup>

فقد عطف على كلمة « المسحت » المنصوبة بالرفع . وكان ذلك يؤدي اللغويين  
الذين كانوا يعاصرونه في البصرة ، فكانوا يراجعونه ، وكان عبد الله بن أبي إسحق  
الحنظلي خاصة يكثير الرد عليه ، والتعرض له ، فقال فيه بهجوه :

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجْرَتِهِ وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا<sup>(٤)</sup>

ويقال إن ابن إسحق حاول أن يقنعنه بأن الصواب أن يقول « مولى موال » .  
ولعل في ذلك كله ما يدلُّ دلالة واضحة على أن الفرزدق لم يكن مهيباً لأن تصدُّر  
عنه موسيقى عندئذ ، إنما كان مهيباً لأن تصدر عنه موسيقى صليبة ، وهو يختلف  
في ذلك من صاحبيه ، فالأخطل بحكم تنقيحه وثقيفه استطاع أن يكون له موسيقى  
جزلة فيها متانة ، ولكن ليس فيها صلابة موسيقى الفرزدق وخشونتها . أما  
جرير فكان نسباً يتدفق ، وقد وصفه الفرزدق وصفاً دقيقاً ، فقال : « إني وإياه  
لنغترف من بحر واحد ، وتضطرب دلاؤه عند طول النهر »<sup>(٥)</sup> . فهو يعترف بأن

(٤) أخبار النحويين البصريين السيرافي

(طبع كرتكو) ص ٢٦ .

(٥) ابن سلام ص ٨٧ .

(١) الديوان ص ١٠٨ .

(٢) النقاظ ص ٥٥٦ .

(٣) المسحت والمجرف : المتأصل .

جريراً أقدر منه في الاستمداد من نهر الشعر ، إذ يستطيع أن يستمد منه في أى مكان يريد لا يتعسر عليه ولا يتعدّر ، أما الفرزدق فكان كثيراً ما يشعر بحواجز تحول بينه وبين ما يريد ، وعبّر عن ذلك تعبيراً طريفاً ، فقال : « أنا عند تسميم أشعر تسميم ، ولربما أتت على ساعة ، ونزع ضرسٍ على أسهمل من قول بيت »<sup>(١)</sup> فهو يُقِرُّ بأن شيطان الشعر لا يُؤَاتيه دائماً .

وهذا كله معناه أن موسيقاه لم تكن تطرد له ، بل كان كثيراً ما يجد فيها التواء وعسراً وصعوبة على صور مختلفة ، بخلاف جرير فموسيقاه لسيّنة سائغة ، تطرد له اطّراداً ، وقد عبّر عن ذلك الأخطل في جملة المأثورة التي مرت بنا في غير هذا الموضع ، إذ قال : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحس من صخر » وفرّق بعيده بين الماء السائغ العذب ، وبين الصخر الغليظ الضخم .